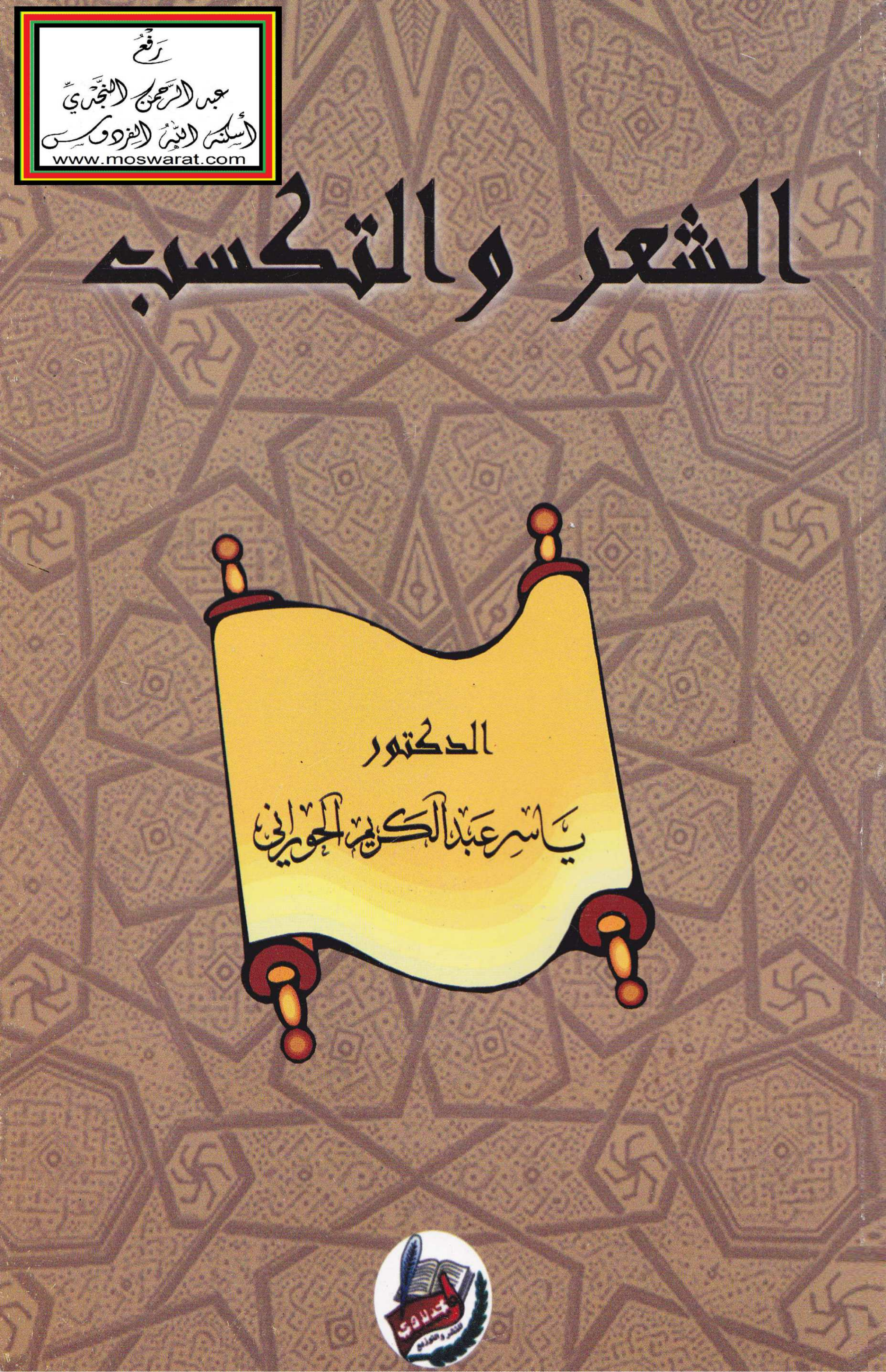


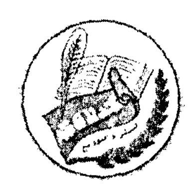
رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
الشعر والتكسب
الدكتور
ياسر عبد الكريم الحوراني

الشعـر والتكسـب

الشعر والتكسب

دراسة اقتصادية

الدكتور
ياسر عبد الكريم الحوراني
أستاذ مساعد في جامعة أم القرى
مكة المكرمة



الطبعة الأولى 1425 هـ - 2004 م

رقم الإيـداع : **2004 / 8 / 1835**

رقم الإجازة : **2004 / 7 / 1830**

ردمـــــك : **ISBN 9957-02-162-1**

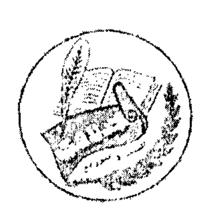
دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

عمان - الرمز البريدي: 11118 - الأردن

ص.ب: 184257 - تلفاكس: 4611606-4622884

WWW.majdalawibooks.com

E-mail: customer@ majdalawibooks.com



الإهداء

إلى شاعرٍ غير متكسب

جادت قريحته بآلاف الأبيات من الشعر

ولم يجـــد بيتــاً واحـــداً يسكنـــه

فلله دره، جَادَ ولم يَجِد، وغيره وجَدَ ولم يَجُد





المقدمة

الحمد لله أولاً، حمداً كثيراً متوالياً، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين وشكر الشاكرين. والصلاة والسلام على رسوله الأمين ،

وبعد :

فقد جاء هذا الكتاب جديداً في بابه، متنوعا في موضوعاته، يتردد في أسلوبه بين سرد القصة بتمامها حفاظاً على روح النص الذي لا يخلو من الالتزام بالمضمون والسياق التاريخي وبين الوقوف على حقائق القصة والبحث في المعاني والمدلولات. فالحديث عن التجربة التاريخية في إطار العلاقة بين الشعر والتكسب ينطوي على قدر كبير من الأمانة والموضوعية، لأنه حكم على تاريخ الدولة والمجتمع. ولا تنفك أهمية الشعر التكسبي عن كشف حقيقة الاختلالات المالية في نظم الجباية والتوزيع، والإنفاق والإنتاج. فالشعر المنظوم للتكسب وتحقيق الأرباح يعد من أهم العمليات الإنتاجية، ولكن من أكثرها ظلماً وجوراً في توزيع الموارد والثروات. فالأموال الطائلة التي كان ينفقها بعض الخلفاء والسلاطين ووزرائهم، مثل سيف الدولة الحمداني (303 – 356 هجرية)، في قصيدة مدح تقال لقائد مهزوم، تؤكد في الجانب الآخر حالة الضعف والهوان لبعض العلماء النابغين كالفارابي الذي اكتفى بأربعة دراهم كل يوم، والكندي الذي اعتزل الناس، والحسن بن الهيثم الذي قضى آخر عمره كاسباً قوته من نسخ الكتب [1] .

وفي سبيل الوصول إلى معرفة جديدة عن سنة الأجل التي تحكم حياة الدول والمجتمعات، والتي تتراوح بين الصعود والهبوط، وبين الازدهار والاندثار، يمكن تتبع سياسة المال في المجتمع الإسلامي، وكشف علاقات اجتماعية أشد عمقاً في صياغة المجتمع. وبدون شك أن تحقيق الثراء والغنى الفاحش يقوم على عوامل عدَّة،

---

[1] محمـــد الغزالـــي، كيف نتعامل مع القرآن، الطبعة الثالثة (فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992) ص 89

ولكن الشعر في مجال التكسب الذي استحوذ على حيز كبير ومهم في كيان الدولة واهتماماتها، كان يقوم بدور محوري في صناعة الثراء وتقسيم المجتمع إلى شرائح محرومة ومعدمة وأخرى مالكة لرأس المال، الأمر الذي يحتاج إلى المزيد من البحث الوافي، كل علم في مجاله واختصاصه، لأن دراسة التاريخ تتضمن جوانب معقدة ومتشعبة، تحكمها علاقات المجتمع بكل أبعاده ومكوناته .

وأما هذا الكتاب، فقد اشتمل على ستة فصول وخاتمة :

تناول الفصل الأول الإطار العام لعلاقة التكسب بالشعر من خلال توضيح مفهوم الكسب وأهميته وخصائص شعر التكسب ومكوناته ودواعيه .

أما الفصل الثاني فقد تناول موقف الإسلام من شعر التكسب مبيناً علاقته بالمجتمع الجاهلي ومشروعيته في الإسلام وواقعه في حياة الصحابة .

والفصل الثالث تناول علاقة الثراء بالشعر التكسبي من خلال التركيز على بعض شعراء التكسب ومزايا الثراء .

وأما الفصل الرابع فقد درس الجوانب الاقتصادية في شعر التكسب كالتجارة وقانون العرض والطلب .

وتضمن الفصل الخامس شعر المدح التكسبي في مجالات مختلفة كالحرب وعلاقات المجتمع والزهد .

وأما الفصل السادس فقد خصص للحديث عن قضايا مختلفة من مجالات الشعر، وأهمها الهجاء والرثاء وعلاقة الشعر بالفقر .

وجاءت الخاتمة كخلاصة لأهم الأفكار والمفاهيم العريضة التي تخللت ثنايا الكتاب .

الفصل الأول

الاكتساب والشعر مفاهيم ودلالات

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: أبعاد مفهوم التكسب وأهميته

المبحث الثاني: خصائص شعر التكسب ومكوناته

المبحث الثالث: دواعي شعر التكسب

الفصل الأول

الاكتساب والشعر : مفاهيم ودلالات

إن أهمية تتبع جوانب العلاقة الوثيقة بين الاكتساب والشعر ضمن مرحلة أولية، ينبغي أن تؤكد طرح المفهوم الشامل للكسب بأبعاده ومظاهره المختلفة، إلى جانب معرفة الطبيعة الاجتماعية للكسب، والوصول إلى الموقف العام من الشعر كمبدأ للحصول على الدخل ووسيلة للتكسب والارتزاق. وقد جاء هذا الفصل مبيناً العناصر الأساسية لأهم تلك الجوانب في ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أبعاد مفهوم التكسب وأهميته

المبحث الثاني : خصائص شعر التكسب ومكوناته

المبحث الثالث : أسباب شعر التكسب

المبحث الأول : أبعاد مفهوم التكسب وأهميته

يدل مفهوم الكسب في اللغة على طلب الرزق، يقال : كَسَبَ يَكْسِبُ كَسْباً، وتكسَّب واكتسب[1]. وهناك مصطلحات أخرى مرادفة لمعنى الكسب تستخدم في نفس المعنى. والواقع أن اهتمامات العرب وتوسعهم في ألفاظ الترادف لمعنى الكسب يشير بوضوح إلى السمة البارزة لأهمية الكسب وضرورته في حياة المجتمع العربي، الأمر الذي أدى إلى استخدام الاصطلاحات اللغوية المتنوعة لمدلول واحد، والتي تصل إلى قرابة (35) مصطلحاً تنطوي على نفس الدلالة اللغوية للكسب[2]. وبالرغم أن طلب الرزق والسعي في مناكب الأرض يحمل في طياته أبرز سمات الحياة العربية التي تعتمد في الأساس على التنقل والترحال، والتي يتم التبادل من خلالها ضمن مصطلحات لغوية كثيرة، إلا أن معظم هذه المصطلحات بات بعيداً عن التناول في الحياة الاجتماعية المعاصرة .

أما في الاصطلاح الشرعي فيطلق معنى الكسب على استفادة المال والحصول عليه من أسباب مشروعة، كالزراعة والتجارة وسائر الحرف والصناعات[3] ولكن التكسب يعتبر ظاهرة عامة تتجاوز حدود الاقتصار على طريقة بعينها، كالتكسب بالشعر على سبيل المثال، ومن هنا قسم الفقهاء طرق الاكتساب إلى ضربين؛ أحدهما

---

[1] محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب (بيروت، دار صادر، د. ت.)، فصل الكاف، باب الباء، 1 / 716 - 717 .

[2] ويمكن بيان هذه المصطلحات مرتبة حسب الفعل الثلاثي، كالآتي :

أبش، بغا، جرف، جلب، حترف، حرف، خبط، خرش، خفق، رقح، زمر، سحت، سمل، صرف، ضرب، طعم، عسس، عسم، عصف، عمل، عوس، عوك، عول، غير، قثم، قرش، قرف، قنا، كدح، كدد، كدش، كده، كسم، هبش، هبل.

[3] نزيه حماد، معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، سلسلة المعاجم والأدلة والكشافات، رقم: 5، طبعة أولى (فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993)، ص 231

يتعلق بطرق الاكتساب المشروعة، وهي تلك الطرق والأساليب التي تلتزم تعاليم الإسلام، والآخر يتعلق بالطرق غير المشروعة، وهي الطرق التي تخالف مبادئ الشريعة.

وفي كل الأحوال ينبغي التمييز بين مدلولين؛ هما الكسب ومشيئة الكسب، ومن الممكن اعتبار هذا التمييز أو الفصل بين المدلولات هو أحد الجوانب الاعتقادية المهمة في شروحات علماء المسلمين، وخصوصاً في مجال العقيدة الإسلامية، بمعنى أنه إذا كان الكسب ينسب إلى أفعال الخلق أو العباد فإنه لا يصح أن تنسب مشيئة الكسب إلا إلى الله تعالى. وحسب مقولة الإمام الغزالي: " من نسب المشيئة والكسب إلى نفسه فهو قدري، ومن نفاهما عن نفسه فهو جبري[1]" أي أن السلوك الاعتقادي الأكثر صواباً في ميزان الشرع هو أن تنسب المشيئة إلى الله تعالى والكسب إلى أفعال العباد .

إن اهتمامات العلماء المسلمين بموضوع الكسب أخذت بالظهور المتزايد بشكل تدريجي تبعاً للعوامل الديناميكية التي تحكم تطور المجتمع ككل. وقد صاحب ذلك أساليب وأنماط جديدة للاكتساب، وبدون شك أن ظروف المجتمع الاقتصادية تمثل الركيزة الأساسية التي أَثْرَت إسهامات علماء المسلمين وطروحاتهم حول الكسب. فضمن مدى واسع يضم انقسام المجتمع إلى ملاّكين وغير ملاّكين، وأغنياء وفقراء، وأشكال جديدة للكدية والمسألة، وأخرى ترتبط بجانب الاستهلاك ووجوه الإنفاق والصدقات، فإنه يعني بوضوح أثر العامل الاقتصادي في توجيه سلوك الأفراد نحو الطرق المختلفة للكسب والارتزاق.

والواقع أنه يمكن الاستدلال بشكل منطقي على موضوع الكسب وأهميته القصوى من خلال الوقوف على إسهامات عديدة للعلماء، والتي تتناول هذا الموضوع ضمن محاور ومضامين متباينة، ولكنها تصب جميعا في نفس الغرض. ولذا فعند النظر في مصنفات العلماء وكتاباتهم نجد كماً غير قليل من

---

(1) أبو حامد الغزالي، روضة الطالبين وعمدة السالكين، مجموعة رسائل الغزالي، رقم السلسلة: 2 (بيروت، دار الكتب العلمية، 1986)، ص 7

هذه الآثار، فقد صنف في مجل الكسب الإمام الشيباني [1]وله الاكتساب في الرزق المستطاب؛ والزاهري [2] وله "المكاسب"؛ والنيسابوري [3]؛ وله "الكسب"وابن مهزيار. [4]وله "المكاسب"وداود الظاهري [5]؛وله مّا يجب في الاكتساب؛ وأبو العيناء[6]، وله "منهاج العمال في ضبط الأعمال"، والراوندي[7]، وله "فساد الدار وتحريم المكاسب" والحلواني[8]، وله " الكسب"،

---

[1] محمد بن الحسن الشيباني، الحنفي، فقيه، مجتهد، محدث، تفقه على أبي يوسف وولاّه الرشيد القضاء، وفاته 189 هجرية. انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، الطبعة الثانية (بيروت دار العلم للملايين، 1984)، 8 / 193. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (بيروت، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، د. ت.)، 13 / 240.

[2] محمد بن الحسن الزاهري، فقيه، إمامي، وفاته في 220 هجرية. معجم المؤلفين 9 / 193.

[3] أحمد بن حرب النيسابوري، واعظ، صاحب غزو وجهاد، وفاته في 234 هجرية. معجم المؤلفين 1 / 188 .

[4] علي بن مهزيار، فقيه، إمامي، كان نصرانياً، أصله من الأهواز، ووفاته في 250 هجرية. الأعلام 5 / 25 .

[5] داود بن علي الأصبهاني، الملقب بالظاهري، مجتهد، تنسب إليه الطائفة الظاهرية، وفاته في بغداد عام 270 هجرية. الفهرست لابن النديم (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د. ت.) ص 272 .

[6] محمد بن القاسم الهاشمي، ناثر، شاعر، اشتهر بنوادره ولطائفه وذكائه، وفاته بالبصرة في 283 هجرية. الأعلام 6 / 334 .

[7] أحمد بن يحيى المعروف بالراوندي، متكلم من بغداد، وفاته في 298. الأعلام 1 / 267. معجم المؤلفين 2 / 200.

[8] عبد العزيز بن احمد البخاري الملقب بشمس الأئمة، فقيه حنفي. نسبته إلى عمل الحلواء، كان إمام أهل الرأي في وقته في بخارى، ووفاته في 448 هجرية. الأعلام 4 / 13.

والوصابي[1]، وله " البركة في فضل السعي والحركة "، وابن كمال باشا[2] وله " رسالة في ذم البطالة ومدح السعي[3]"، والكوراني، وله " الإلماع المحيط بتحقيق الكسب الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط"، والميرغني[4]، وله "التحذير من الدنيا الغدارة والتنبيه لطلب الحلال ولو بمرارة"، وعلي الجمالي[5]، وله "نيل المـــرام في تمييز الحلال من المكاسب والحـــرام[6]"، ومحمود الحداد[7]، وله "الكسب المستطاب بحديث الاحتطاب"، ومؤلفون مجهولون ولهم "أوراق من بيان الترغيب في طلب المعايش والتكسيب[8]"، "وتآليف به تفسير آيات قرآنية تحض على كسب الرزق[9]"، و"رسالة في طلب الحلال ومدح الكسب وذم الحرام والربا[10]" .

إن السمات والملامح العريضة الأكثر وضوحاً في هذه المصنفات أنها شديدة التنوع في طروحـــات الكسب، ولكنها مع ذلك تخلو من الإشارة إلى علاقة

---

(1) محمد بن عبدالرحمن الوصابي، فقيه شافعي من اليمن، وفاته في 786 هجرية. الأعلام 6/ 193.

(2) أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي، عالم توفى بالقسطنطينية في 940 هجرية. معجم المؤلفين 238/1.

(3) مخطوط في مكتبة الأوقاف ببغداد برقم 8 / 6453 مجاميع، ونسخة في المكتبة المركزية بجدة برقم 13 / 3 ضمن مجموعة، ونسخة في المكتبة الخالدية بالقدس برقم 17 مجموع 5.

(4) محمد أبو بكر بن القطب السيد عبد الله الميرغني، وفاته عام 1218 هجرية. وليس له ترجمة.

(5) علي بن محمد الجمالي التونسي المالكي، متكلم، مفسر، توفي بمصر عام 1248 هجرية. معجم المؤلفين 7 / 235 .

(6) مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس برقم : 18504، ويقع في (16) ورقة.

(7) محمود بن محمد الحداد، ليس له ترجمة.

(8) مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس برقم 18504، ويقع في (16).

(9) مخطوط بمكتبة الأمبروز يانا بميلانو، رقم المجموع 328، رقم المخطوط 2.

(10) مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس برقم 698.

الكسب بالشعر، وهي الدراسة التي نحن بصددها مما يعزز من أهمية البحث في هذا الموضوع. ومن جهة أخرى نجد أن الحديث عن الكسب في هذه المصنفات ينحصر في اختصاصات العلماء، فباستثناء أبو العيناء الذي اشتهر بنوادره وذكائه بصفته شاعراً وناثراً، لا يوجد غيره من العلماء ممن كتبوا في الكسب لديه اهتمامات بباب الشعر، وإنما تتناول اهتماماتهم فروع المعرفة الأخرى، وخصوصاً تلك المعرفة التي تتعلق بمسائل الشريعة، كالفقه والحديث والكلام وغير ذلك. وحتى أن أبا العيناء الشاعر لم يشمل كتابه مسألة الشعر كأحد مدخلات الاكتساب، أي أنه يخلو من التجربة الذاتية التي خاضها بعض الشعراء باحتراف الشعر لأجل الكسب، والواقع أنه لا تتوافر أدلة مرجعية، ولا في فهارس المخطوطات التي تم الرجوع إليها، ما يثبت أن الشاعر المتكسب قام بمحاولات سرد لخبرته الشخصية في كتابة سيرة ذاتية ضمن مصنف يمكن الاستفادة منه في هذا المجال. وخلافاً لما قام به بعض العلماء بترجمة سيرتهم وحياتهم الحافلة بالعلم، كالغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال"، وابن حزم في كتابه "طوق الحمامة" وغيرهما، فإنه يمكن ملاحظة أن كتاب "الكسب" للإمام أحمد بن حرب النيسابوري هو أحد الكتب المهمة التي تقع في التجارب الذاتية، لأن الإمام النيسابوري كما جاء في ترجمته هو صاحب غزو وجهاد، والتوافق واضح بين الجهاد والكسب، بمعنى أن الجهاد هو أحد مدخلات الكسب، بل إنه أفضل المدخلات على الإطلاق، أي أن الكسب بالجهاد أفضل من الكسب بالحرف والصنائع الأخرى كالزراعة والفلاحة وغيرها، وذلك احتجاجاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم "جعل رزقي تحت ظل رمحي[1]".

---

(1) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الفكر، 1978، كتاب بدء الوحي، باب ما قيل في الرماح، 3 / 1067.



المبحث الثاني : خصائص شعر التكسب ومكوناته

إن شعر التكسب كما هو واضح أحد الأساليب الاجتماعية التي يتم من خلالها جذب المال، وليس المقصود بالمال الدراهم والدنانير، أو النقدين المتعارف عليهما بالذهب والفضة، وإنما مفهوم المال أبعد من ذلك في أهداف وأغراض الشعر التكسبي.

إن الخصائص الذاتية للتكسب تتلازم بشكل أكيد مع مفهوم المال على أنه "ثلاثة أموال متباينة الأشكال : أرض وحيوان ونقد[1]". فالشاعر يهدف أولاً إلى حيازة المقومات الأساسية للحياة، والتي تستخدم في الغالب كوحدات تبادل حسب النظام الاجتماعي السائد. وفي هذا المجال لا تعتبر الإبل أقل قيمة من الذهب والفضة في علاقات الأفراد عند العرب، بل إن الإبل هي وحدة التعامل الأساسية التي عرفتها أسواق العرب في الأنشطة التجارية وغيرها، كما أنها العنصر الأساسي الذي تقاس به قيم الأشياء[2]، ومع قدر من التحفظ على الصعوبات التي تواجه أي نظام اقتصادي يعتمد على أسلوب المقايضة، والتي لا يمكن وضع حلول لها للقيم النسبية الصغيرة المطروحة في عمليات السوق على أنها قيم مجزّأة، ولكن هذا لا يعني ان الجمل الذي لا يقبل التجزئة لتقدير بعض القيم غير مناسب كوحدة قياسية في الحياة العربية التي تعتمد عليه في تقدير الحقوق والديات والفدية والمهور وغير ذلك .

---

(1) الحسين بن أحمد الهمداني، كتاب الجوهرتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، حققه ونقله إلى الألمانية كريستوفرطول، الطبعة الأولى (اوبسالا، 1968)، ص 53.

(2) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الأولى (بيروت، دار العلم للملايين، 1971)، 5 / 337 .

وأما العنصر الثالث من مفهوم المال وهو عنصر الأرض فقد ظهر بوضوح في سلوكيات شعراء التكسب على أنه أحد الأغراض المطلوبة لذات الشعر، وبدون شك أن طلب الشاعر للأرض واشتياقه إلى ملكيتها بعبارات ساحرة في شعره لا يتحقق إلا إذا كانت الأرض المطلوبة ذات منافع ومزايا كبيره، ويروى أنه دخل الشاعر كُثَيِّر[1] على عبد الملك بن مروان فأنشده[2]:

جَرَتك الجـوازي عن صديقك نَفْرةً ... وأتـاك ربـي فـي الرفيـق المقُرَّبِ

فإنـك لا يُعـطى عليـك ظلامـةً ... عـدوٌ ولا تنـأى عـن المتقـرِّبِ

وإنـك مـا تمنـع فـإنـك مانـعٌ ... بحـقٍّ، ومـا أَعطيـت لـم تَتَعَقَّـبِ

فقال له أترغب غُرَّباً ؛ وهي أرض فيها لذائذ الفاكهة والأطعمة من الرطب والتمر وغيره، قال : نعم يا أمير المؤمنين. قال : اكتبوها له، ففعلوا .

والواقع أن هنالك شواهد كثيرة لأهمية الأرض والضياع في الشعر التكسبي، وتبرز خصائص الشعر من خلالها بصورة أكبر تبعاً لحجم الأعطيات والفوائد الممنوحة، ويعتمد ذلك على تفاعل الممدوح مع القصيدة ومدى تأثره بها، ومن أبرز ما يروى في هذا الجانب قصة دحمان الأشقر مع الخليفة المهدي، وقد غلب على دحمان الغناء، ولكن مع شهرته فيه كان رجلاً صالحاً كثير الصلاة مدمناً

---

[1] هو كثير عبد الرحمن بن أبي جمعة، كان رافضياً وقد تاب عند وفاته. وهو من أشعر أهل الإسلام وقد أكرمه يزيد بن عبد الملك بأموال طائلة وكان له نصيب وافر في التشبيب. انظر: محمد بن عبد السلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرحه محمود شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، 2 / 540 – 545 .

[2] أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، كتاب الأغاني (بيروت، دار الثقافة، 1983)، 9/2 – 10.

للحج. وأهم ما في قصته مع المهدي أنه أُعطي منه في ليلة واحدة خمسين ألف دينار[1]، وذلك أنه غنَّى في شعر الأحوص :

قـــطــُوفُ المَــشــْي إذ تــمــشي   تــرى فــي مــشيــتهــا خــرَقــا

فأعجبه وطرب طرباً شديداً، حتى قال المهدي لدحمان: سلني ما شئت. فقال: ضيعتان بالمدينة يقال لهما ريّان وغالب، فأقطعه إياهما، فلما خرج التوقيع بذلك إلى أبي عبيد الله وعمر بن بزيع راجعا المهدي فيه، بسبب أهمية الضيعتين إذ لا تلحقان إلا بالخلفاء، وقال: إن هاتين ضيعتان لم يملكهما قط إلا خليفـــة، وقد استقطعتهما ولاةُ العهود في أيام بني أمية فلم يقطعوهما، فقال: والله لا أرجع فيهما إلا بعد أن يرضى، فَصُولح عنهما على خمسين ألف دينار[2].

وأما هذه القصيدة التي افتتن بها الخليفة واهتز لها طرباً فلا تتجاوز أربعة أبيات :

ســرى ذا الهمُّ بل طَرَقا   فــبــتُّ مُسهــدَّاً قــلقــا

كــذاك الحــُبُّ مما يُحــ   ــدِثُ الــتسهيــدَ والأرقــا

قَطُوفُ المَشْي إذ تمشــي   تــرى فـــي مشيتها خَرَقــا

وتــُثقــلْهــا عجيزتُهــــا   إذا ولــــَّت لــتــنــطلقــا

---

(1) الدينار نوع من النقود الذهبية. ومنها أنواع كثيرة مثل الدنانير اليوسفية واليعقوبية والناصرية والدنانير الدمشقية التي ضربها عبد الملك بن مروان وغيرها. انظر : محمد رواس قلعه جي، معجم لغة الفقهاء، الطبعة الثانية (بيروت، دار النفائس، 1988)، ص 208. أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي (دار الجيل، 1988)، ص 163 – 173.

(2) الأصفهاني، الاغاني، 6 / 23 .

إن مجالات الشعر تتسع لتشمل شعر الحماسة والفخر والمراثي إضافة إلى ما اشتهر به من شعر المديح والهجاء، وكذلك كما في القصيدة السابقة[1] تصاغ بعض الأبيات الشعرية ضمن أساليب غنائية أو موشحات أو غيرها مما يفتح مجالات جديدة للاكتساب. ولكن تبرز خصائص الشعر الذي يتم صناعته للتكسب في أوزان خفيفة أقل من أوزان المعلقات، وفي الغالب تؤثر الموضوعات القصيرة النَفَس، وهي موضوعات تبتعد إلى حدٍ بعيد عن تلك الموضوعات التي كانت سائدة في الشعر الجاهلي القديم، وكما عبَّر "كلود كاهن" عن الموضوع الأساسي لهذا الشعر بأنه لم يعد يتغزل بالحسناء التي تقيم بعيداً في الصحراء، ولا يتغنى بمآثر القبيلة وامتطاء الإبل بل أخذ يصور القصور والحدائق وحفلات الصيد ويشيد بالخمرة والقيان، حتى إذا أدرك الشاعر سن الشيخوخة تاب إلى الله وصاغها شعراً، وقد أبدى هذا الشعر استخفافه بالمحرمات مما أثار قلق المسلمين الأتقياء، ولم يتوصل إلى تصوير العاطفة الأصيلة[2]".

إن تعظيم الكسب أو الربح لدى شعراء التكسب لا يعني كقاعدة مطلقة التنازل عن كل القيم والمآثر وإن كان الغالب فيها الابتعاد عن الحقائق والصفات الذاتية للممدوح، وإنه ينبغي ملاحظة أن الشعر يولد في بيئة محددة الملامح، ويستجيب لطبيعة التفاعلات الاجتماعية بين الأفراد، والتي تنعكس بشكل إيجابي على الطبقة المالكة لرأس المال، ولذا سلك شعراء المدح التكسبي بعض الدروب النفسية في خطاب الممدوح، من خلال نعته بصفات مثل الجواد والكريم والواهب وأحياناً إثارة الشفقة من خلال إظهار الحاجة وشكوى الفقر. وثمة قضية أخرى تتعلق بشخصية الشاعر وهي خلافاً لما قال "كلود كاهن" أنه لا يترتب على الشعر لأجل التكسب أن يميل الشاعر إلى

---

[1] وربما يكون دحمان من المغنين المبدعين في عصره، إذ استشهد له أبو العلاء المعري في شعره ، فقال:

جَهَلَنَ الغناء وصوتاً يُقا ... لُ غناهُ دحمانُ أو زلزلُ

[2] كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، الطبعة الثالثة (بيروت، دار الحقيقة، 1983)، ص 100 - 102.

الشعر الماجن أو اللهو القبيح، ولكن في أحوال كثيرة كما يقول فيشر (Ficher) عن علاقة الرأسمالية بالفنّ "أنها أطلقت قوى إنتاج فني هائلة، وساعدت على ازدهار الفنون وعلى إنتاج مجموعة كبيرة من الأعمال الفنية المركبة المعبّرة الأصيلة[1] ".

وقد ساعد الشعر في جعل عاصمة الخلافة بغداد الحاضرة الثقافية التي يقصدها العلماء، وتماماً مثلما يقصدها الشعراء من مسافات طويلة بسبب الإغراء الكبير والجوائز السخية التي يحصلون عليها بعد قصائد المدح. وبالرغم من أن أغلب الشعراء ينشدون قصائدهم في قصور الخلافة، أو البلاط الذي يعكس جانباً من الحياة المتكلفة وسط أفراد الحاشية والقيان، إلا أن بعض الشعراء كانوا يحترفون هذا العمل، ويلازمون بلاط الخليفة بطريقة مهنية بحتة، ولكنهم يتحلون بثقافة محافظة، ومنهم الشاعر الضرير أبو النجم بدر بن جعفر الذي جاء في ترجمته أنه دخل واسطاً في صباه وحفظ بها القرآن المجيد وتأدب ثم قدم بغداد فصار من شعراء الديوان، وجعل له على ذلك رزق دار وأقام بها إلى أن مات في رمضان سنة 611 هجرية [2].

---

[1] أرنست فيشر، ضرورة الفن، ترجمة ميشال سليمان (بيروت، دار الحقيقة)، ص 62 .

[2] ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت، دار صادر ودار بيروت، 1977)، 1 / 256 .

المبحث الثالث : دواعي شعر التكسب

لقد أدت التحولات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي إلى إحداث تغييرات أساسية في نظام الملكية وقطاعات الزراعة والتجارة بشكل خاص. وفي ظل هذه الأوضـــاع ازداد الفقراء فقراً والأغنيـــاء غنى، وشهد العهد الأموي والعباسي تحولات كبيرة بالنسبة إلى كبار المزارعين الذين تحولوا من ممارسة الأعمال والحرف المتعلقة بالزراعة إلى تجار عقارات وتجار بضائع، وقد صاحب هذا التحول تدهور أحوال المزارعين العاديين وعمال الزراعة وبخاصة في المناطق الأقل دخلاً كالبداوة والأرياف، فظهرت قوى فاعلة في المجتمع مكونة بصورة أساسية من عمال الزراعة والعبيد ودهماء المدن، والتي ترتكز في عملها وأهدافها على رفض نتائج التغيير والتحول الاجتماعي لمصلحة الطبقة المالكة لرأس المال. وقامت ثورات وانتفاضات داخلية عديدة في المجتمع الإسلامي لأسباب اقتصادية بحتة مثل انتفاضة "بابـــك" للفتـــرة (200 – 221 هجرية) التي جاءت من أذربيجان وتحركت باتجاه العراق وخراسان، وكان غرضها قطع الطرق التجارية وممارسة أعمال النهب والسطو على طرق القوافل، واستمرت في ذلك حتى حاصرها المعتصم وسيطر عليها، ومن هذه الانتفاضات ما عرف بانتفاضة "الزَّطّ" الذين كانوا يتواجدون جنوب العراق في عهد المأمون للفترة (177 – 215 هجرية) ويمارسون أعمال الزراعة، ومنها ثورة "الزّنج" التي كانت تمارس الاعتداءات على الأهواز والبصرة وواسط إلى أن أخمدها الموفق، وهناك ثورات وقلاقل داخلية عديدة إلى جانب ظهور طبقات اجتماعية كادحة يتفاوت عملها بين التسول والكدية وأعمال النهب والصعلكة وأحياناً بين الانكماش والزهد .

إن الشعر من أجل الاكتساب في مثل هذه الظروف أشبه بعمليات التبادل عن طريق السلب والنهب والكدية والتسول، ولكن بدون شك أن دوافع الارتزاق بكل الوسائل الممكنة لا يخلق شعراء غير عاديين كفحول الشعراء وجهابذة الشعر، وإنما يتم تداول الشعر عبر طبقة كبيرة من المجتمع لأن الهدف هو الحصول على المال ولو كان قليلاً ليس أكثر. يقول الإمام الغزالي "وأما المكدي فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فلا يعطى شيئاً، فافتقروا إلى حيلة في استخراج الأموال .. كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون، وإما بالتعامي والتفالج والتجانن والتمارض وإظهار ذلك بأنواع من الحيل .. وجماعة يلتمسون أقوالاً وأفعالاً ليتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدته .. وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والأفعال المضحكة وقد يكون بالأشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع من حسن الصوت [1] ".

فالأشعار الغريبة والكلام المسجع يمثل صورة اجتماعية للكسب غير المشروع ولكنها ليست الصورة الوحيدة التي يتم بها تداول المال والاستحواذ على الثروة وإنما هي جزء من منظومة شاملة لكافة قطاعات المجتمع من المتسولين، حتى قال الغزالي " ويدخل في هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رؤوس المنابر إذا لم يكن ورائهم طائل علمي وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين[2] ".

والسمة البارزة على شعر المدح في بداية العهد الإسلامي وخصوصاً في القرن الثاني الهجري، أي بداية ضعف الارتباط بالمنهج الإسلامي وتعاليم الإسلام، هو أن الشعر عبارة عن نشاط اقتصادي ومهنة اجتماعية ومصدراً من مصادر الدخل التي تعتمد عليها الأسرة، وذلك بعيداً عن قضايا التسول بوجود حاجة حقيقية

---

(1) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين (بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.)، 3 / 242.

(2) إحياء علوم الدين، 3 / 242 – 243 .

للأفراد بالرغم من وجود فنون كثيرة للتسول، ففي أخبار بشّار أنه قال لأبيه عندما أصاب منه ضرباً مبرحاً وهو صغير يهذي بالشعر ويجذب إليه الناس "يا أبت إن هذا الذي يشكونه مني إليك هو قول الشعر، وإنّي إن ألمت به أغنيك وسائر أهلي، فإن شكوني إليك فقل لهم: أليس الله يقول: لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ [1] ".

وقد قام الصعاليك بنبذ المجتمع ورفض الحياة المهينة وسلكوا طريقهم للحصول على المال بقطع الطرق والاعتداء على القوافل طمعاً بالعيش الكريم، لأن الجوع ترك آثارا قاسية في حياتهم وطبع نفسيتهم بالتشرد والألم. وتمثل المسافة الشاسعة بين الأغنياء والفقراء صورة للفوارق الاجتماعية وخصوصاً بين البوادي والمدن الناشئة مما سبب أثراً مباشراً لممارسة الصعلكة منذ القرن السادس الميلادي في حياة الجاهلية الأولى. ويصف أبو الشمقمق[2] حالة الفقر التي يعيشها كغيره من الصعاليك بقوله[3]:

فمنزلي الفضاءُ وسقفُ بيتي   سماءُ الله أو قِطَعُ السحاب

فأنت إذ أردت دخلت بيتي   عليَّ مُسلِّماً من غــير بابِ

ولكن مع تطور المجتمع الإسلامي وظهور دولة المناذرة والغساسنة أصبح الغالب على شعر المدح أن يطلب لأسباب أخرى غير الفقر، وأهمها طبيعة التحولات الاجتماعية وجذب مراكز المدن لبعض شعراء القبائل، وفي الوقت الذي

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، 3 / 203 . ووردت الآية في سورة الفتح، الآية 17.

[2] أبو الشمقمق (ت 200 هجرية) : هو مروان بن محمد، خراساني الأصل، من أهل البصرة، شاعر هجاء، من موالي بني أمية، كان يتهاجى مع شعراء عصره مثل بشار بن برد، وكان يتكسب منه. انظر : عزيزة فوال بابتي، معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، الطبعة الأولى (بيروت، دار صادر، 1998)، ص 208 - 209.

[3] إبراهيم النجار، مجمع الذاكرة أو شعراء عباسيون منسيون (تونس، كلية الآداب، 1988)، 3 / 41

كانت الأنشطة التجارية تشهد فيه ازدهاراً متنامياً فإن الروابط القبلية كانت تنحدر نحو الأسفل، ويمارس الأفراد دورهم في المجتمع بعيداً عن العلاقات المتماسكة ضمن القبيلة، إلى جانب أن المناذرة والغساسنة " كانوا يرون في تقريب الشعراء سبباً من أسباب الأبهة والعظمة وزينة الملك ووسيلة للدعاية[1] ".

وقد دفعت الحاجة الفعلية للمال مع أسباب أخرى بعض الشعراء لاحتراف التكسب، ومن هذه الأسباب فساد الحكم وضعف الحكام وسطوتهم وظلمهم للرعية[2]، لأن الملك والعدل توأمان كأنما خرجا من بطن واحد، وفي حالة شيوع الظلم والاستبداد بدلاً من العدل والمساواة بين الرعية تنتج حالة عامة من الضعف والهوان عند الأفراد مما يسبب فساداً للفكر والملكات النفيسة، وهي عملية ممزوجة مع واقع الفقر وانتشار الصعلكة. وقد كشف غير واحد من الصعاليك عن ميولاته نحو الصعلكة بأنها واحدة من نتائج الظلم وفساد السياسة، فعندما ظفر الحجاج بأحد الصعاليك وهو جحدر بن مالك الحنفي سأله عن أسباب قيامه بممارسة الصعلكة، فقـــال: "حملني على ذلك جرأة الجنـــان وجفوة السلطان وكَلَب الزمان[3] "، وفي زمن معاوية كان عبيد الله بن الحرّ رجلاً صالحاً تقياً وشارك مع معاوية في صفين ثم سكن الكوفة، ولكن بعدما انتشر الظلم وظهر فساد الملك عند بني أمية "خلع وقاره وتصعلك وخرج من الكوفة بمن انضم إليه من حلفاء القبائل ويمّموا وجوههم نحو المدائن فكان يأخذ أموال السلطان ويفرقها بين أصحابه[4] ".

---

[1] درويش الجندي، ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده، الطبعة الأولى (القاهرة، دار نهضة مصر، 1970)، ص 19

[2] محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص 92.

[3] محمد رضا مروة، الصعاليك في العصر الأموي: أخبارهم وأشعارهم (بيروت، دار الكتب العلمية، 1990)، ص 42.

[4] المصدر نفسه، ص 66 .

وفي كل الأحوال لا يعدو التكسب بالشعر كونه تجارة يقصد منها تعظيم الربح وتحقيق أكبر قدر من المنفعة الشخصية، وتتحكم بها قوى العرض والطلب في علاقات السوق، وظهر وصف التجارة ومشتقاتها في العديد من أشعار الاكتساب في مدح السلاطين وغيرهم .

يقول أبو الشمقمق في مدح المهدي[1]:

ولقد غدوت وليس لي إلا مديحك من تجارة

ويقول أبو نواس[2] في مدح الرشيد[3]:

وبضاعـــة الشعراء إن أنفقتها نفقت وإن أكسدتـــها لـــم تُنْفَـــق
وأخفتَ أهل الشركِ حتى إنَّهُ لتخافُك النُطَـــفُ التي لم تُخلَــقِ
لقد اتقيــت الله حـــق تقاتـــه وجهدتَ نفسك فوق جَهدِ المتَّقـــي

---

(1) عبد الله بن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثانية (القاهرة، دار المعارف، 1968)، ص 127.

(2) أبو نواس (763 – 814) : الحسين بن هانئ، شاعر العراق في عصره. ولد بالأهواز من بلاد خوزستان، ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني عباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصيب، وعاد إلى بغداد فاقام إلى أن توفي فيها. هو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية، وقد نظم في جميع أنواع الشعر، وأجود شعره خمرياته. انظر : أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى 0 بيروت، دار الكتب العلمية، 1997)، 7 / 449 .

(3) أبو نواس، الديوان، تحقيق عبد المجيد الغزالي (بيروت، دار الكتاب العربي، 1984)، ص 401.

وفي قصيدة أخرى يقول أبو نواس :

وكذاكَ نِعمَ السوقُ أنت لمَن   كسدت عليه تجارةُ الشعرِ

ويقول سبط ابن التعاويذي[1]:

يــزنُ الحمــدُ عنـــدهُ   مــُلك كسرى وذي يـــزَن
ويـــرى أن مشتري الــ   حَمــدِ بالمـــال قـــد غبَــن
فهـــو يستعظم المديـــحَ   ويــَســـتحـــقــرُ الـــثمَـــن

وللبحتري[2] إشارات عديدة إلى الشعر باعتباره سلعة تجارية، منها :

نفق الشعر بعدما كان عِلقـاً   فاحش الرُخص مُكسدِين تِجارُه

والمتنبي[3] يرفض أن تباع سلعة الشعر في أسواق غير رائجة :

وشغلُ النفسِ عن طلب المعالي   ببيع الشعر في سوق الكساد

---

(1) سبط ابن التعاويذي (1125 – 1187م) : محمد بن عبيد الله المعروف بابن التعاويذي، شاعر العراق في عصره، من أهل بغداد، عمي سنة 579 هجرية، وله ديوان وكتاب الحجبة والحجاب.

(2) البحتري (831 – 898 م) : الوليد بن عبيد أبو عبادة البحتري، شاعر كبير يقال لشعره سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم، المتنبي وأبو تمام والبحتري. ولد بمنبج بين حلب والفرات، ورحل إلى العراق فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي وتوفي بمنبج، له كتاب الحماسة على مثال حماسة أبي تمام. انظر : الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 13 / 451 – 452.

(3) المتنبي (915 – 965 م) : أحمد بن الحسين الكوفي الكندي، أبو الطيب. ولد بالكوفة ثم تنقل بالبادية طلباً للعربية والأدب. وفد على سيف الدولة ابن حمدان في حلب فمدحه وحظي عنده، ومضى إلى مصر فمدح كافور الأخشيدي وطلب منه أن يوليه فلم يوله كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه. قصد العراق وفارس، فمدح عضو الدولة ابن بويه الديلمي في شيراز.

وأما عرقلة الكلبي[1] فيوضح سبب البوار والكساد لسوق الشعر على طريقة الهجاء :

يقولون لم أرخصتَ شعركَ في الورى فقلتُ لهم إذ مات أهلُ المكارمِ
أُجازى على الشعـــر الشعـــير َ وإنَّـــه كثيرٌ إذا استخلصـــته من بهائمِ

وواضح أن الشعر لدى شعراء التكسب هو عملية تجارية تواجه تقلبات السوق كبقية السلع الأخرى، ففيها الرواج والكساد، وفيها ارتفاع وانخفاض للأسعار، وتخضع لحركة دورة اقتصادية ينشأ منها حالة تضخم أو حالة ركود اقتصادي، وكل ذلك تضمنته الأبيات السابقة بوضوح، مثل : تجارة، بضاعة، أنفقتها، أكسدتها، السوق، الثمن، الرخص .. حتى أن الأبيات التي تناولها ابن التعاويذي تنطوي على مفهوم اقتصادي أو بشكل أدق مصطلح اقتصادي في غاية الأهمية وهو مفهوم مصطلح "التعظيم Maximization" الذي تقوم عليه مبادئ النظرية الاقتصادية الحديثة، فقوله " فهو يستعظم المديح .. " يدل على مبدأ تعظيم الربح لدى الشاعر، وقد عبر عن ذلك بأسلوب فني رائع، لأن الممدوح عندما يعظم المديح تتم المبادلة بينه وبين الشاعر وفق ثمن توازني مرتفع، فهو يعظم السلعة وهي سلعة الشعر بصفته مشترياً (مستهلك) أي أنه يحقق منفعة اقتصادية عالية القيمة من السلعة المباعة، بينما يعظم الشاعر المردود أو الربح الناتج عن عملية البيع بصفته بائعاً (منتج)، فتعظيم المنفعة (Utility) هو هدف للمستهلك (الممدوح)، وتعظيم الربح (Profit) هو هدف للمنتج (الشاعر).

---

[1] عرقلة الكلبي (1093 – 1171 م) : حسان بن نمير الكلبي، شاعر من الندماء، كان من سكان دمشق واتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي فمدحه ونادمه ووعده السلطان بأن يعطيه ألف دينار إذا استولى على الديار المصرية، فلما احتلها أعطاه ألفين فمات فجأة قبل أن ينتفع بفجأة الغنى.

والواقع أن سلعة التجارة التي تقوم على مبادلة سلعة الشعر لا تختلف عن أية تجارة أخرى، لأن هذا النوع من المبادلات جزء من قيم المجتمع التي تطورت مع الزمن وخضعت لعوامل عدّة كما أوضحنا سابقاً، وخصوصاً أن المجتمع الإسلامي أخذ بالتحول التدريجي من نظم اجتماعية ترتبط بعلاقات اقتصادية لا تحقق المستوى الكافي للاحتياجات الأساسية للأفراد إلى نظم اجتماعية أكثر تطوراً تعتمد بدرجة أساسية على التجارة وتعظيم الوفرة والرخاء .

الفصل الثاني

موقف الإسلام من شعر التكسب

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: علاقة شعر التكسب بالمجتمع الجاهلي

المبحث الثاني: مشروعية التكسب بالشعر

المبحث الثالث: الشعر في حياة الصحابة

الفصل الثاني

موقف الإسلام من شعر التكسب

فقد جاء الإسلام بدعوته السامية لإصلاح المجتمع الجاهلي في المرحلة الأولى، والتي كانت دعوة هداية وخير ممزوجة بالترغيب والترهيب معاً، وكانت دعوة جهادية للنفس تماشي ظروف الإنسان والقيم السائدة في ذلك المجتمع. ومن غير شك أن تعاليم الإسلام انطلقت من قاعدة المنهج الرباني الذي يهدف إلى تحرير الإنسان وإعادة ترتيب العلاقات الاجتماعية وفقاً لأهدافه السامية. ولمّا كان الاكتساب أحد الأنشطة الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد بطريقة ظالمة وغير عادلة مع جهد الأفراد، فقد تركزت التشريعات الإسلامية في هذا المجال بشكل كبير، وخصوصاً في مجال البيوع، ولهذا فقد تناول هذا الفصل موقف الإسلام من شعر التكسب باعتباره سلعة قابلة للتبادل تعكس سعراً وثمناً ربما يكون فاحشاً في السوق، وذلك من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: علاقة شعر التكسب بالمجتمع الجاهلي

المبحث الثاني: مشروعية التكسب بالشعر

المبحث الثالث: الشعر في حياة الصحابة



المبحث الأول: علاقة شعر التكسب بالمجتمع الجاهلي

إن شعر التكسب حيثما وجد فإنه يمثل لغة متناسقة مع أحوال المجتمع نفسه، بمعنى أن الشعر لغة متناسقة مع الواقع المعاش، وتلعب العلاقات الاجتماعية دوراً بارزاً في صياغة أغراض الشعر وأهدافه. وواضح أن المجتمع الجاهلي كانت تسوده طبقتان ؛ طبقة الأكابر والأشراف من جهة، وطبقة الضعفاء والعبيد من جهة أخرى. وكانت طبقة الأشراف تمثل رموز الغنى والثروة في المجتمع. وفي ظل هذا الواقع تقوم طبقة العبيد بدور محوري وهام بالنسبة لطبقة الأغنياء، ولا سيما أن تجارة الرقيق كانت نشطة مع وجود أسعار زهيدة، وقد كان العبيد أنفسهم جزءاً من المتاع لا يتمتعون بأية كرامة إنسانية، كما حدث مع امرؤ القيس الشاعر المشهور، الذي قدم مهراً لعروسه عشرة من العبيد، وعشرة من الإماء، ومائة من الإبل وثلاثة أجياد[1].

إن الشعر في المجتمع الجاهلي يحتل مكانة بارزة في أسواق مشهورة، فالقصائد السبع أو العشرة المعروفة بالمعلقات تنسب إلى سوق عكاظ، وفي هذا السوق لا تقل القيمة المادية لقصائد المدح والهجاء والرثاء عن قيمة الثياب والجلود الفاخرة، والتي فيها يقال: أديم عكاظي نسبة إلى سوق عكاظ. وتماماً فإن دور الشاعر النابغة الذبياني الذي عرف بالتحكيم في أشعار العرب في سوق عكاظ، هو نفس الدور الذي كان يلعبه خطيب العرب " قس بن ساعدة الإيادي " الذي تنسب جل خطبه إلى هذا السوق.

وقد كان بعض الأغنياء في الجاهلية يملكون أشكالاً أخرى من وسائل اللهو والترفيه مثل الاستماع إلى الكلام المسجّع من الشعراء والصوت الطروب من القيان، ومن هؤلاء عبد الله بن جدعان في مكة، وهو ميسور واسع الثراء، يأكل في صحاف الذهب، فلقّب بحاسي الذهب، ويشرب بآنية من فضة وقد استجلب القيان

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، 8 / 74.

لتغنيه، وله شاعره الخاص وهو أمية بن أبي الصلت. وفي يثرب كان أشهر الأغنياء أحيحة بن الجلاح الذي كان يتعاطى الربا ويتخذ القصور للعيش في أجواء اللهو والمرح.

لقد ظهر شعر التكسب في بيئة المجتمع العربي الجاهلي تبعاً للعلاقة بين الغني والفقير والسيد والعبد، وتبعاً للعادات والقيم الراسخة في المجتمع، فالكرم صفة عربية قديمة تعبر عن مآثر العظام، وغالباً ما يصف الشاعر المتكسب الممدوح بالجود والعطاء والكرم، وهذا الخطاب بقدر ما يتفاعل مع أعماق النفس الإنسانية المجبولة على حب الثناء والإقرار بفعل الخير والإحسان للآخرين، فإنه في نفس الوقت وسيلة هامة في إشباع الحاجات وتحقيق اللذة الذاتية، ويتناسب ذلك مع قدر الممدوح ومدى اشتهاره بالكرم والمسؤولية على حد سواء بين الناس.

ومن العادات التي استقرت في المجتمع وكان لها تأثير قوي على شعر التكسب هـي تلـك الـنظرة المتردية للمرأة أو الأنثى بوجه عام، حتى استباح المجتمع وأد البـنات كمـا جاء في الآية " وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ [1] "،كما أجبر الأسياد والأغنياء من يمتلكون من الإماء على ممارسة البغاء مقابل أجر، وفي ذلك يقول القرآن وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا الأمـر الـذي دفع العديد من شعراء الغزل للافتتان واللهو في وصف الأنثى وجلب المـال مـن ذلك. وحتى في هذا الباب نجد أن المرأة نفسها كانت على درجة عالية مـن الـتأثر بـالواقع الذي يعظم المال والثراء. ولو كان ذلك على حساب سعادتها الأسـرية وعـدم الاقـتران بالـرجل الصالح الذي يشكو العوز والفقر ولكنه يؤمن بالدرجـة والمكانـة الرفيعة للمرأة. وقد وصف هذا المشهد الشاعر دحية بن خلف الكلبي في قصيدته المشهورة حيث خطب امرأة يقال لها أسماء وكانت تقول ما لحيَّة مال، فقال مجاوباً لها[3]:

---

[1] سورة التكوير، الآيتان 8، 9.

[2] سورة النور، الآية 33.

[3] ابن منظور، لسان العرب، باب الخاء، فصل الطاء، 3 / 37.

تقــول أسمـــاء لما جئت خاطبها: يــا حـــيٌّ مـــا أرَبي إلا لذي مـــالِ
أسمـــاءُ لا تفعــليها، رُبَّ ذي إبلٍ يغشـــى الفواحـــشَ لا عَفٌّ ولا نالِ
الفقر يـــزري بأقــوامٍ ذوي حسبٍ وقـــد يسوّد، غيـــر الســـيد، المـــالُ
والمالُ يغشى أُناساً، لا طـــباخ لهم كالسيل يغشى أصول الدِّندن البالـــي
أصـــون عرضـــي بمالي لا أُدنسه لا بارك الله بعد العـــرض في المالِ
أحتـــال للمـــال، إن أودى، فأكسبه ولست للعرض، إن أودى، بمحتـــال

ومن العادات الراسخة في المجتمع الاعتداء على الآخرين بفحش القول والتنابز بالألقاب والخوض في الأعراض وكل ما يتعلق بالمفسقات وخوارم المروءة. وقد ظهر شعر الهجاء كتعبير واضح لحالة المجتمع التي تسمح بالاتهامات الشنيعة وقدح الآخرين بشتى الوسائل، وفي هذا المجال برز شعراء الهجاء بصفة قيادية يستفيد منها الأشراف للرد على خصومهم وأعدائهم وكذلك للوصول إلى حاجاتهم المطلوبة. وكان التكسب بالشعر القائم على السباب والشتائم يلعب دوراً حاسماً في الانتصار لقبيلة على قبيلة أخرى، وقوة مساندة أثناء المعارك والغزوات. وقد كان العرب يحسبون للهجاء خطورته وأثره الكبير على أنسابهم وسمعتهم بين الناس، ولذا نجد تعبيراً دقيقاً لمكافأة أو أعطية الشاعر وهو "قطع اللسان" وحتى أن هذا التعبير استخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من موطن، فعندما احتج الشاعر العباس بن مرداس[1] علىٰ الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة وهو يوزع الغنائم عمّا أعطاه لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس، والتي منها قوله:

---

(1) العـــباس بن مرداس: شاعر فارس، من سادات قومه، أمُّه الخنساء الشاعرة. أسلم قبيل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم ويُدعى فارس العُبيد، وهو فرسه، وكان بدوياً قحاً، ولم يسكن مكة ولا المدينة وإذا حضر الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم، لم يلبث بعده أن يعود إلى منازل قومه، وكان ينزل في بادية البصرة، وكان ممن ذم الخمر وحرّمها في الجاهلية، مات في خلافة عمر. انظر: الأغاني للأصفهاني، 18 / 22.

أتجعــل نَهبي ونهبَ العُبَيــ ـــد بيــن عُيــينـــةَ والأقـــرَعِ
وكانـــت نِهــاباً تَــلافَيتــها بكرِّي على المُهْرِ فـــي الأجرَعِ
وما كـــان حِصـــنٌ حـــابس يـــفوقان مرداسَ فـــي مَجمـــعِ

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم " اقطعوا عني لسانه " فزادوه حتى رضي[1]. وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كنى باللسان عن الكلام، وقطع اللسان يدل على خطورة الكلام. وفي الحديــث: " أتاه رجلٌ فقال: إني شاعر، فقال: يا بلال اقطع لسانه، فأعطاه أربعين درهماً[2] ".

وعندما جاءت الخنساء[3] الشاعرة تمدح الحجاج:

إذا هبط الحجـــاج أرضاً سقيمة تتبَّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هزَّ القناة سقاها

فلما أتمت القصيدة قال لكاتبه: اقطَع لسانها، فجاء بالموس، فقالت له: ويلك، إنما قال: أجزل لها العطاء، ثم ذهبت إلى الحجاج، فقالت كاد والله يقطع لساني[4].

---

(1) الأصفهاني، الأغاني 14 / 285 وما بعدها.

(2) أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي (دار الجيل، 1981)، ص 365.

(3) الخنســاء: تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، من بني سليم من مضر، أشهر شواعر العـــرب، أدركت الإسلام فأسلمت، ووفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها من بنـــي ســليم، فكان رسول الله يستنشدها ويعجبه شعرها، ويقول: هيه يا خنساء. أكثر شعرها وأجـــوده رثاؤهـــا أخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا في الجاهلية، لها ديوان شعر، وكان لها أربعـــة بنيـــن دفعـــتهم للاستشهاد والثبات في المعركة، وقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم. انظر: بطرس البستاني، أدباء العرب، (بيروت، دار المكشوف، 1934)، 1 / 225 – 236.

(4) محمـــد الغزالـــي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، سلسلة كتاب الأمة، الرقم: 1 (قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1402 هجرية)، ص 133.

أغراض محددة، وقد خضع ذلك للضغوطات الاجتماعية والعادات السائدة وطبيعة العلاقات بين الأفراد، ولذا جاء الإسلام كمنهج حياة، يحدد الإطار العام لسلوك الأفراد ويهذب طاقاتهم ومواهبهم النفيسة، وهو ما سيتم مناقشته في المبحث التالي.



المبحث الثاني: مشروعية التكسب بالشعر

لقد وضع الإسلام في أحكامه وتشريعاته الحلول للمشكلات الاجتماعية بشكل تدريجي، وذلك بحسب طبيعة المشكلة وتأثيرها في واقع المجتمع ومدى تغلغلها في علاقات الأفراد. ومنها مشكلة الخمر والميسر وبعض المشكلات التي عالجها الإسلام بتخفيف وطأة العلاج، ووضع الحكم التشريعي متأرجحاً بين الحلال والحرام مرتين متتاليتين، وأهم هذه المشكلات مسألة تحويل القبلة ومسألة نكاح المتعة.

والشعر كظاهرة اجتماعية تنطوي على خصوصيات ثقافية مختلفة لا تنفك عن ممارسات الأفراد وعاداتهم ومصالحهم التي يكتنفها الهوى والباطل كما يكتنفها الحق والصواب. وقد عالج القرآن مسألة الشعر من خلال رد تهم المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم، بأنه واحد من أهم شعراء زمانه لأنه تمكن من تحقيق مكاسب كبيرة على مستوى المجتمع وتغيير الواقع. وواضح أن مقولة المشركين تنحصر في شعر التكسب، أي أن القرآن من قبيل الشعر الذي يقصد به النبي الحصول على المغانم والأموال، وقد دفعهم هذا الاعتقاد إلى عرض الملك والمملكة للرسول صلى الله عليه وسلم للرجوع عن دعوته، والكف عن قول الشعر وتحقيق الثراء الواسع بأقصر طريق.

ومن هنا جاءت سورة الشعراء ذات الإيقاع السريع الذي يهز أعماق النفس ويخاطب الوجدان والعقل، للدلالة على خطورة الشك والتهمة وتنزيه القرآن أن يكون صناعة بشر، وقد حملـت السورة عنـوان "الشعراء" تأكيدا لحجم الخطورة وأهمية معالجتها، مع أن السورة نفسها تتضمن موضوعات شاملة حول الرسالة والرسل في آيات كثيرة تصل إلى (221) آية، مما جعل منها أطول سورة في القرآن بعد سورة البقرة، ومع ذلك لم تتحدث عن الشعراء إلا في الخاتمة بواقع (4) آيات قرآنية.

وفي جانب آخر يلاحظ أن القرآن عبر تشريعاته السامية جاء متناسقاً مع أهداف المحافظة على المجتمع الإسلامي وحمايته من الاعتداء على جهد الآخرين، وقد يكون هذا الجهد في صورة مال أو غيره، فمثلاً عالج قضايا السطو والسرقة والقتل، وقد ترجم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الموقف مع الصعاليك عندما كاتب بعضهم وأمّنهم ووعدهم بأنهم إن أسلموا وأصلحوا " فعبدهم حرّ ومولاهم محمد ومن كان منهم من قبيلة لم يُرَدّ إليها، وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم، وما كان لهم من دَيْن في الناس رُدّ إليهم، ولا ظلم عليهم ولا عدوان[1] "، وعالج الإسلام شعر التكسب بالغزل بتحريم الزنى والبغاء في قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[2]، ودلالة الآية واضحة في النهي عن كل الوسائل التي تكون سبباً في القرب من فعل الزنا، وبدون شك أن فعل التكسب في وصف الأنوثة وخلع الوقار بالتغزل في مفاتن المرأة وعورات النساء هو من الأساليب المقرّبة للزنا. ومن شعر التكسب الذي عالجه الإسلام التكسب بالهجاء، فحرم التنابز بالألقاب ولمز الأنفس، فجاءت الآية الكريمة ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3] "، ومنه التكسب بالمدح، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[4] ". كما أن الإسلام راعى مشاعر الفقراء بتحريم استخدام الذهب والفضة، وهي منافع مخصوصة لاستخدامات الأغنياء الذين اعتادوا على مظاهر الترف باستعمال آنية الذهب والفضة، " وقد كانت ثياب الحرير والملابس المقصَّبَة بالذهب وحلل الديباج من ألبسة الأغنياء[5] "، بينما يعيش الفقراء في شظف وضنك من العيش، فإذا عجزوا عن ضمان القوت عمدوا إلى الأعشاب وأوراق الشجر، حتى

---

[1] محمد بن سعد، كتاب الطبقات الكبير (بيروت، دار صادر، د. ت.)، 1 / 278.

[2] سورة الإسراء، الآية 32.

[3] سورة الحجرات، الآية 11.

[4] سورة النجم، الآية 32.

[5] جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، 7 / 438 – 439.

أن فقراء مكة سرقوا أموال الآلهة أيام القحط الشديد لضمان قوتهم[1]، وبدون شك أن نظرية الإسلام في إعادة توزيع الثروة عن طريق آليات مختلفة ؛ كالزكاة والصدقات والكفارات والنذور والميراث وغيرها، هو دليل واضح على أهمية صيانة حقوق الإنسان وتأمين احتياجاته الأساسية، مما نتج عن هذا الوضع إلغاء سبل الارتزاق بالوسائل الخسيسة ؛ كالهجر بالشعر والافتتان بالمرأة طلباً للحصول على المال.

وإذا كان الشعر هو تعبير وجداني عن حالة ما، فهو كلام وقول يحتمل الخطأ والصواب، وفيه قال الرسول صلى الله عليه وسلم " حسن الشعر كحسن الكلام وقبيح الشعر كقبيح الكلام[2] ".

فموقف الإسلام من الشعر يعتمد على مضامين الشعر نفسه، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يسير في أصحابه إذ عرض شاعرٌ ينشد، فقال صلى الله عليه وسلم " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً[3] "،

قال العلماء إن الرسول فعل هذا مع الشاعر لأنه عرف حاله باتخاذ الشعر وسيلة للتكسب " فيفرط في المدح إذا أُعطي، وفي الهجو والذم إذا منع، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم، فكل ما يكتب بالشعر حرام، وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه بل يجب الإنكار عليه[4] ".

---

[1] عبد الملك بن هشام، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم (القاهرة، مطبعة حجازي، 1937)، 1 / 83.

[2] علي بن عمر الدار قطني، سنن الدار قطني (القاهرة، دار المحاسن، د. ت.)، 4 / 156، رقم الحديث: 5.

[3] أحمد الزبيدي، مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، تحقيق إبراهيم بركة، الطبعة الرابعة (بيروت، دار النفائس، 1990)، 471، رقم الحديث: 2048.

[4] محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.)، 150/13.

ولذا من امتلأ صدره شعرا دون الذكر ليتخذه ذريعة للتكسب والوقوع في أعراض الآخرين كالمكثر من اللغط والهذر وقبيح الكلام، وبسبب هذه الأوصاف المذمومة بوّب البخاري على هذا الحديث في صحيحه " باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكــر الله والعلــم والقرآن "، وهذا الموقف هو ما جعل بعض العلماء يقتصدون في الشعر خوفاً من ضياع ما لديهم من القرآن والعلوم النافعة، ومن هنا جاء قول الشافعي[1] :

ولولا الشعرُ بالعلمـــاء يُزري	لكنتُ اليومَ أشعرَ من لبيد
وأشجع في الوغى من كل ليثٍ	وآلِ مهلـــبٍ وبني يزيـــد
ولـــولا خشية الرحمـــن ربـــي	حسبتُ الناسَ كلّهمُ عبيدي

والواقع أن إشارة الشافعي إلى الشاعر المخضرم لبيد بن ربيعة[2] تعكس الصورة الأخرى لموقف الإسلام الإيجابي من الشعر، أي الكلام الحسن في لغة الشعراء. وقد أثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على الشاعر لبيد الذي وفد عليه سنة وفد قومه بنو جعفر، فأسلم وحسن إسلامه، وكان من المؤلفة قلوبهم، وقال فيه: "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل[3] "، ويؤكد هذا الشعر أسمى الأهداف الإسلامية في مجال العقيدة ووحدانية الله تعالى، مما يعزز

---

(1) محمـــد بن إدريس الشافعي، الديوان، تحقيق محمد عفيف الزعبي، الطبعة الرابعة (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1983)، ص 39 – 40.

(2) لبـــيد بـــن ربيعة (ت 41 هجرية): أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من نجد، أدرك الإســـلام فاسلم، يعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم، وترك الشعر، وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً، وهو أحد أصحاب المعلقات. انظر: أدباء العرب لبطرس البستاني، 1 / 144. البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، 1968)، 1 / 217.

(3) عبد العظيم المنذري، مختصر صحيح مسلم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (أسيوط، لجن إحياء السنة، د. ت.)، ص 397، رقم الحديث: 1507.

من فرص الاستفادة من الشعر الهادف وتوظيفه نحو الأغراض السامية، وروي عن عائشة رضي الله عنها لما أنشدت شعر لبيد:

ذهب الّذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلَف كجلد الأجربِ
يتلــذذون مجــانــة ومذلــة ويعــاب قائلهــم وإن لم يشغب

فقالت: رحم الله لبيداً كيف لو أدرك زماننا هذا[1] !

وقد أثنى القرآن على بعض الشعراء في نفس السورة التي وسمت بالشعراء استثناءاً من الشعراء الذين يقودون الغواية والضلال ويفعلون خلافاً لأقوالهم في الشعر، فقال تعالى:

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ [2]

وهؤلاء الشعراء الذين عناهم القرآن هم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، لقولهم الحق ومن على طريقتهم في ذكر الله تعالى واتباع قول الحق.

فأما حسان بن ثابت فقد عاش في الجاهلية ستين سنة، ولما أدرك الإسلام عاش ستين سنة أخرى ينافح بقصائده عن الدين[3]. وأما كعب بن مالك فهو شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم شهد أحداً فجرح بها بضعة عشر جرحاً، وبالرغم أنه لم يشهد بدراً وكان مع الثلاثة الذين تخلفوا عن تبــوك ثم تيب عليهم، إلا أنه شهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]. وأما عبد الله بن رواحه فإنه أحد القادة المشهورين في غزوة مؤته، وبطولته كقائد وشاعر يحمل راية الجهاد وينشد الأشعار في سبيلها ما تزال حاضرة في ضمير الأمة وتاريخها المجيد.

---

(1) عــز الدين بن الأثير الجزري، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد البنا وآخرون، (دار الشعب د. ت.)، 4 / 514.

(2) سورة الشعراء، الآية 227.

(3) أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، 553/3، رقم الحديث: 6053.

(4) المصدر نفسه، 3 / 498، رقم الحديث: 5861.

وعندما نزلت آية الشعراء جاء كعب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله إن الله أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي: إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترونهم به نضح النبل[1]. وفي حديث الأسود بن سريع قال قلت يا رسول الله إني مدحت الله مدحة ومدحتك أخرى قال هات وابدأ بمدحك الله[2]. إن مدح الله في هذا المقام تنزيه لذاته وإقراراً بعبوديته ووحدانيته وتفكراً بآياته وخلقه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكافئ على المدح تعظيماً لمعانيه السامية وتكريماً لمضامينه الرفيعة. وربما تكون المكافأة التي منحها الرسول للشاعر كعب بن زهير عن قصيدته " بانت سعاد " هي أعظم مكافأة نالها شاعر، والتي خلع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بردته الشريفة للشاعر الذي أعلن في قصيدته توبته ورجوعه عن الشرك طمعاً في مغفرة الرسول الكريم وعفوه عنه، وتعتبر هذه المكافأة أحد الأدلة القوية التي دعمت مبدأ العطاء على شعر المدح، وتأثير الشعر على نفسية الممدوح، ممثلاً بموقف الرسول واستجابته السريعة في تقرير العطاء بما يماشي الأعراف السائدة، وتعظيماً لبردة النبي قام الأمويون فيما بعد بشرائها من كعب بثلاثين ألف درهم وبقيت بينهم يتداولونها بالتوارث كابراً عن كابر حتى جاء دور بني العباس وورثوها مع الخلافة إلى أن سقطت بغداد حاضرة الخلافة على يد المغول بزعامة هولاكو عام 556 هجرية.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13 / 153.

(2) عبد الله بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، 5 / 279، رقم الحديث: 26065.

المبحث الثالث: الشعر في حياة الصحابة

فبعد بيان مشروعية التكسب بالشعر في القرآن والسنة المطهرة، يجدر توضيح موقف الصحابة من الشعر بوجه عام، ومعرفة دور الشعر في حياتهم، ومدى انتشار ظاهرة التكسب في الشعر، ومشروعية ذلك في مجتمع الصحابة.

فالمعروف أن بيئة الصحابة في بداية عهد الخلافة لا تختلف عن بيئة الرسالة من حيث مستوى العيش والرخاء العام، فهي بيئة أقرب إلى انعدام الحاجات الأساسية ومتطلبات الرفاه والوفرة، ولكنها بيئة غنية بالتربية الإيمانية المتضمنة للقناعة والتقلل من الحياة والرضا بالقليل، وقد أدى هذا الوضع إلى عدم شيوع ظاهرة التكسب بالشعر كسمة عامة يقبل بها المجتمع. ولكن وجود الشعر كثقافة اجتماعية عامة كان له حضور كبير لدى جُلّ الصحابة وحتى أمهات المؤمنين. فقد روى هشام بن عروة عن أبيه قال " ما رأيت أحداً أعلم بشعر ولا فريضة ولا أعلم بفقه من عائشة[1]. وكان ابن عباس عندما يسأل في الفتوى عن شيء من القرآن يحتج على قوله بشعر من أشعار العرب[2]. كما كان الصحابة يتذاكرون الشعر والرسول بينهم لا ينهاهم وربما يبتسم[3]. وقد امتثل أبو بكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم " إن من الشعر حكمة[4] "، وكان يقول رُبّ قال الشاعر الكلمة الحكيمة[5]، ومن هنا فقد ورد عن الشعبي قوله: كان أبو بكر شاعراً، وكان عمر شاعراً، وكان علي شاعرا[6].

---

(1) مصنف بن أبي شيبة، 5 / 276، رقم الحديث: 26044.

(2) المصدر نفسه، 5 / 276، رقم الحديث: 26049.

(3) المصدر نفسه، 5 / 278، رقم الحديث: 26062.

(4) الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، ص 471، رقم الحديث: 2047.

(5) مصنف بن أبي شيبة، 5 / 274، رقم الحديث: 26031.

(6) المصدر نفسه، 5 / 274، رقم الحديث: 26028.

ولكن بعدما تولى عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين ظهر شكل جديد للعلاقات بين الأفراد بسبب ازدياد الثروة الناتجة عن التجارة من جهة، وازدياد الموارد المالية الناتجة عن أموال الغنائم والفيء والجباية والضرائب والمكوس وغيرها من جهة أخرى، الأمر الذي نتج عنه السعي وراء المال وخصوصاً في مجال الشعر، وقد اتخذ عمر في هذا الشان موقفاً مانعاً لأي شكل للتكسب بالشعر، وقد عرف عنه هذا الموقف في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما دخل عليه وعنده الأسود بن سريع ينشده شعراً، فقال النبي للأسود: اسكت ! إن عمر لا يحب الباطل. وقد فسر بعض العلماء معنى الباطل المراد في الحديث بأنه صناعة الشعر واتخاذه كسباً بالمدح والذم. فأما ما كان ينشده للنبي صلى الله عليه وسلم فليس من ذلك ولكنه خاف أن لا يفرق الأسود بينه وبين سائره فأعلمه بذلك[1].

ومن المواقف المشتهرة عن عمر في الزجر عن الباطل من الشعر قصته المشهورة مع الشاعر الحطيئة[2]، فيروى أن الحطيئة كان شاعراً مشهوراً ببذاءة لسانه وهجوه الناس، وقام بهجاء الزبرقان بن بدر فسجنه عمر فاستعطفه بقصيدة[3]:

ماذا تقول لأفــراخٍ بذي مــرخٍ	زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ ؟
ألقيت كاسبهم في قعْــر مُظلِمةٍ	فاغفــر ســلام الله عليك يا عمــر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه	ألقت إليــك مقاليــد النــهى البشــرُ
ما آثــروك بها إذا قدمــوك لها	لكــن لأنفسهم كانــت بــك الخِيَــرُ

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، 11 / 56.

[2] الحطيئة (ت 45 هجرية): جرول بن أوس بن مالك العبسي، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجاءاً عنيفا، لم يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه، وأكثر من هجاء الزبــرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب فسجنه عمر بالمدينة ثم أطلقه. انظر: تاريخ الأدباء، بطرس البستاني، 1 / 237 – 252.

[3] الحطيئة، الديوان، شرح أبي الحسن السكّري (القاهرة، مطبعة التقدم، د. ت.)، ص 86.

وذكر صاحب الأغاني أن عمر لما أطلق الحطيئة قال له: إياك وهجاء الناس. فقال الحطيئة: إذن يموت عيالي جوعاً ! هذا مكسبي ومنه معاشي. قال: فإياك والمقذع منه، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[1].

وفي "وفيات الأعيان" أن عمر لما طلب منه أن يكفّ لسانه عن الناس، قال الحطيئة: يا أمير المؤمنين اكتب لي كتاباً إلى علقمة بن عُلاثة لأقصده به، فقد منعتني التكسب بشعري، والمعـــروف أن علقمة كان من الأجواد المشهورين، ويسمى الأحوص لصغر عينيه، وكان يقيم في حوران وقد استعمله عمر عليها، فامتنع عمر من الاستجابة لطلب الحطيئة، فقيل له يا أمير المؤمنين وما عليك من ذلك ؟ إنما علقمة رجل من المسلمين تشفع بك إليه. فكتب له بما أراد، فمضى الحطيئة بالكتاب، فصادف علقمة قد مات والناس منصرفون من قبره، وابنه حاضر، فوقف عليه ثم أنشد[2]:

لعمري لنعم الـــمرء من آل جعفـــرٍ بحَوران أمسى أعلَقَتهُ الحبائلُ
فإن تَحْيَ لا أملك حياتي، وإن تمت فما في حياةٍ بعد موتك طائلُ
وما كـــان بيني لو لقيتـــك سالمـــاً وبين الغنى إلا ليـــالٍ قلائـــلُ

فقال له ابنه: كم ظننت أن علقمة كان يعطيك لو وجدته حياً ؟ فقال: مائة ناقة يتبعها مائة من أولادها، فأعطاه ابنه إياها[3].

وقد جرت عادة عمر أن يختبر أحوال الرعية ويتعسس في الليل ويتفقد الضعفاء ويكرم على ذلك، وكان أيضاً يسأل بعض الشعراء عن أحوالهم ويتيقن بنفسه التزامهم بالشرع، فروي أن عمر سأل يوماً لبيد بن ربيعة وقال له أنشدني شيئاً من شعرك. فقال: ما كنت لأقول شعراً بعد أن علّمني الله " البقرة " و " آل

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، 2 / 156.

(2) الحطيئة، الديوان، ص 216.

(3) أحمد بن محمد ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس (بيروت، دار صادر، د. ت.)، 5 / 191 - 192.

عمران " فزاده عمر في عطائه خمسمائة وكان ألفين[1]. ويدل تكريم عمر للبيد وسؤاله له حرصه على حظوته عند الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وصف كلمته في الشعر بأنها أشعر كلمة قالتها العرب كما مرّ آنفا.

وحتى أن عمر كان يتفقد أحوال عماله في الأقاليم مثلما يتفقد أحوال الرعية في المدينة، ويطمئن على قيامهم بحاجة الناس، وله كلمة مشهورة في هذا المجال وهي قوله " لو عثرت بغلة في الطريق لخشيت أن يسألك الله عنها يا عمر "، وأما عن الشعر وسؤال عمر عنه لعماله في المناطق والأقاليم، فيروى أن النعمان بن عدي بن نَضْلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال:

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أن حليلها ... بمَيسانَ يسقى في زجاج وحَنْتَمِ
إذا شئتُ غنتني دهاقينُ قريةٍ ... ورقّاصةٌ تجذو[2] على كل مَنْسمِ
فإن كنتَ نَدْمانِي فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلّمِ
لعلّ أمير المؤمنين يَسوءهُ ... تَنادمُنا بالجَوْسق[3] المتهدّمِ

فلما وصل الخبر إلى عمر أرسل في طلبه، وقال: إي والله إني ليسوءني ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت ؛ وإنما كانت فضلة من القول، وقد قال الله تعالى: " والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون " فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد ؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت[4].

إن ممانعة عمر رضي الله عنه لشعراء التكسب والهجو يؤكد دور الإسلام في حماية المجتمع والمحافظة على وحدة النسيج الاجتماعي للمسلمين، وصيانة

---

(1) عز الدين ابن الأثير، أُسْد الغابة، 4 / 514 - 517.
(2) تجذو: تقوم على أطراف الأصابع.
(3) الجوسق: القصر: فارسي معرب.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13 / 149.

حرمة المسلم في ماله وعرضه، حتى أشار بعض الفقهاء إلى أن شهادة الشاعر المفرط في المدح بإعطاء أو ذم غير مقبولة وترد في موطن الفتوى[1]، وأما مطلق الشعر فإنه من باب الكلام المألوف ما لم يخالف تعاليم الشريعة. وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر فقال ويلك يا لكع وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي فحسنه حسن وقبيحه قبيح. ويُذكر أن عبيد الله بن عتبة بن مسعود كان أحد فقهاء المدينة العشرة وكان شاعراً مجيداً وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب[2].

نستنتج مما تقدم أن الشعر في حياة الصحابة يعكس ظاهرة اجتماعية مقبولة، وربما يكون واجباً في بعض المواقف، ومنه أن حسان بن ثابت كان يوضع له منبر

خاص يقوم عليه فيهجو من هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]، أي أن للشعر دور مستقل وحيوي في تفاعلات الحياة، وإنما يضبط واقع الشعر في المجتمع حقوق الأفراد وحرمة أنفسهم وأموالهم أن تكون صيداً مباحاً لكل متربص أو نهباً لكل طامع أو معتدٍ من الشعراء.

---

(1) منصـور بـن يونس البهوتي، كشاف القناع عن متن الإقناع (بيروت، عالم الكتب، 1983)، 422/6.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13 / 148.

(3) البهوتي، كشاف القناع، 6 / 422.



الفصل الثالث

الثراء والتكسب بالشعر

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الثراء وشعراء التكسب

المبحث الثاني: الاكتساب ومزايا الثراء



الفصل الثالث

الثراء والتكسب بالشعر

يعد الثراء من أهم النتائج المتمخضة عن الشعر في مجال التكسب، وقد خاض الشعراء تجارب متنوعة ومختلفة باختلاف معطيات المحل وظروف الحال التي يرضى بها الممدوح، وهناك مدى واسع يجعل الشاعر أكثر حماساً وعطاءاً في إفاضة الشعر للتكسب، وبخاصة أن القيم الاجتماعية وعلاقات المجتمع الإسلامي تسمح بهذا النوع من الاكتساب، كمكافآت وجوائز يحظى بها الشعراء. وكما حدث في العهدين الأموي والعباسي في نطاق أكبر لتعايش شعراء التكسب مع السلاطين والخلفاء، ولكن لا يخلو الشعر في مناسبات عديدة من إثبات تجربة إنسانية وعاطفة صادقة لا يسعى الشاعر بها للحصول على مزايا خاصة، أو أن الشعر لا يخلو من الإشارة إلى فضائل أخلاقية ومحاسن متنوعة تدخل في جانب العادات؛ كالزهد والشجاعة والقناعة وما شابه ذلك. وقد تناول هذا الفصل أبعاد علاقة الشعر بالتكسب في مبحثين هما:

المبحث الأول: الثراء وشعراء التكسب

المبحث الثاني: الاكتساب ومزايا الثراء



المبحث الأول: الثراء وشعراء التكسب

إن الثراء والغنى الفاحش يعد من أبرز ملامح طرق التكسب بالشعر، ولم يكن السعي وراء المال لتحقيق مكاسب أكثر بعيداً عن أهداف العديد من الشعراء، ولا سيما الذين احترفوا المديح وأتقنوا الأساليب المطلوبة في إضفاء المحاسن والصفات المثلى للممدوحين، وقد كان "الأعشى[1]" أكثر شعراء التكسب في الشعر أيام الجاهلية، وهو الذي مزج الشعر بالغناء فكان يسمى " صناجة العرب "، وكانت علاقته بمهنة الشعر منذ نعومة أظفاره وبلوغه سن الصبا إلى كهولته متكسباً وجامعاً للمال، ووصف هذه التجربة بقوله[2]:

وما زلت أبغي المالَ مُذْ أنا يافعٌ	وليداً وكهلاً حينَ شبتُ وأمــردا
وأبــذل العيسَ المراقيــل تغتلي	مسافــة ما بين النَّجيرِ فَصَرْخَدَا

وللأعشى إسهامات مهمة في صياغة الشعر حسب احتياجات المجتمع، أو حسب الطلب، مما يمكن أن يطلق عليه "الترويج والإعلان"، وسيأتي بيان ذلك مما عرفته العرب عن قدرة الأعشى وبراعته في نظم الشعر وإقناع الآخرين وإشباع أذواقهم.

---

[1] الأعشــى (ت 629 م): مــيمون بن قيس الوائلي، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحــد أصحاب المعلقات، كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر، عــاش عمــراً طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشى لضعف بصره، وعمى في أواخر عمره، مولده ووفاته في قرية (منفوحة) باليمامة قرب مدينة الرياض وفيها داره وبها قــبره. انظــر: لويس شيخو. شعراء النصرانية قبل الإسلام (بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1922 - 1925)، 1 / 357

[2] الأعشى ميمون بن قيس، الديوان، شرح محمد حسين، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة الآداب، 1950، ص 135.

ومثل الأعشى في الجاهلية برز الشاعر مروان بن أبي حفصة[1] كأفضل شاعر في التكسب في الإسلام. ويشير ابن خلكان في " وفيات الأعيان " إلى أن المهدي أعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم[2] بقصيدته التي أولها[3]:

طرقتك زائرة فحيِّ خيالها

وكانت أشعاره في معن بن زائدة من أفضل الأشعار في وقته، حتى قيل أنها جعلته يسبق شعراء زمانه، وأنه أخذ من معن بن زائدة مالاً كثيراً لا يقدر قدره، ولا تعرف حدوده، وأمـــام هذه المكاسب الكبيرة " لم ينل أحد من الشعراء الماضين ما ناله مروان بشعره، فمما ناله ضربة واحدة ثلاثمائة ألف درهم من بعض الخلفاء بيت واحد[4] ".

وقد أشار إلى عظمة الثراء الذي وصل إليه وحظوته في الغنى، وجمعه المال من كل أشكاله، فجاء في قوله[5]:

ما نالت الشعراء من مُستَخْلَف ... ما نلتُ من جاهٍ وأخذ بُدورِ
ولقد حُبيتُ بألفِ ألفٍ لم تُثَبْ ... إلا بسيْبِ خليفـــةٍ وأميـــرِ

---

(1) مـــروان بـــن أبـــي حفصة (105 – 182 هجرية): من فحول الشعراء المقدمين، من أهل الـــيمامة، قدم بغداد ومدح المهدي وهارون الرشيد. يسمى أبو السمط، وقيل أبو الهندام، كان جده يهودياً طبيباً، أسلم على يد عثمان بن عفان. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 189/5

(2) الدرهم: نوع من النقود الفضية زنة الواحد منها 2,979 غم. انظر: محمد رواس قلعة جي، معجم لغة الفقهاء، ص 208.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 351.

(4) المصدر نفسه، 5 / 190.

(5) مـــروان بـــن أبي حفصة، شعر مروان بن أبي حفصة، تحقيق حسين عطوان، الطبعة الثالثة (القاهرة، دار المعارف، 1982)، ص 55 -56.

وأشار قبل موته إلى نفس المعنى[1]:

لم يحظَ في الشعر كما حظيتُ جمعٌ من الناسِ ولا شتيتُ

وبعدما مات معن بن زائدة فإن مروان بن أبي حفصة بقي على عهده مع معن ووصفه بالشجاعة والكرم والجواد الذي لا أحد بعده، وتعتبر مرثيته في معن من روائع المراثي التي جسدت علاقة الشاعر بالممدوح على أساس التجربة الحية والعاطفة النابعة بالحب والوفاء، وهذه المرثية التي صور فيها الشاعر ممدوحه بأنه بعد موته انقطع الرجاء من أهل زمانه ولا نوال بعده جعلت طريق التكسب غير سهل أمام الشاعر وحرمته من العطاء والمكافأة، وقيل: إن مروان بن أبي حفصة بعد مرثيته في معن، كان كلما مدح خليفة أو غيره، قال له: أنت قلت في مرثيتك:

وقلنا أين نرحل بعد معنٍ وقد ذهب النوال فلا نوالا

فلا يعطيه الممدوح شيئاً ولا يسمع قصيدته[2].

وذكر صاحب الأغاني طرفاً من حيلة مروان وكيف استطاع بجاذبية شعره وذكائه وملاطفته للخليفة المهدي أن يكسر حاجز الحرمان الذي فرض عليه بسبب مرثيته وأن يحقق بالمدح مزايا إضافية، فيروي الأصفهاني أن الفضل بن الربيع قال: رأيت مروان بن أبي حفصة بعد موت معن بن زائدة قد دخل على المهدي في جماعة من الشعراء فيهم سَلْم الخاسر وغيره، فأنشده مديحاً، فقال له المهدي: من أنت؟ فقال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له المهدي: ألست القائل:

وقلنا أين نرحل بعد معنٍ

وأنشده البيت المذكور، وقد جئتَ تطلب نوالنا وقد ذهب النوال؟! لا شيء لك عندنا، فلما كان في العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء، وذلك أن الشعراء كانوا

[1] المصدر نفسه، ص 26.

[2] ابن خلكان، وفيات العيان، 5 / 252.

يدخلون في ذلك الحين في كل عام مرة، قال: فمثل بين يديه وأنشده قصيدته التي أولها:

طرقتك زائرة فحيَّ خيــالها — بيضاء تخلط بالحيــاء دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومــثلها — قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

فأنصت له حتى بلغ إلى قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها — بأكفــكم أو تسترون هلالها

قال: فأنصت له المهدي، ولم يزل يزحف كلما سمع شيئاً منها، حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع، ثم قال له: كم بيتاً هي؟فقال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم، وهي رواية مختلفة، ويقال إنها أول مائة ألف أعطيها شاعر في خلافة بني العباس.

ثم يقول الفضل بن الربيع: فلم تلبث الأيام أن أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد، ولقد رأيت مروان مائلاً مع الشعراء بين يديه، وقد أنشده شعراً، فقال له: من أنت؟فقال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له: ألست القائل في معن كذا، وأنشده البيت، ثم قال: خذوا بيده فأخرجوه فإنه لا شيء له عندنا ثم تلطف حتى دخل عليه بعد ذلك فأنشدهُ فأحسن جائزته[1].

إن قصة مروان مع الخلفاء كالمهدي وهارون الرشيد تنطوي على دلالات عميقة توضح مدى المنزلة التي وصل إليها التكسب بالمدح، وبقدر ما تعكس هذا الجانب فإن سرد القصة على إطالتها لا تفسر الثواب الجزيل للشاعر على مدحه أكثر من تفسير ولع الخلفاء بالشعر، وبخاصة شعر المدح والثناء على الذات وتزكية النفس، فبالرغم من أن مروان بن أبي حفصة انحصر شعره المادح في معن بن زائده أولاً، وأقر بأن معن غير مسبوق في نواله وعطائه، مما يقدح بمعاني الكرم وسعة العطاء الذي اشتهر به الخلفاء، إلا أن الخلفاء أنفسهم تجاوزوا سقطة مروان

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، 10 / 91. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 252 – 253.

في مرثيته لمعن، وأبعد من ذلك كما تشير الرواية المطولة إلى أن الخليفة المهدي عند سماعه للقصيده "لم يزل يزحف كلما سمع شيئاً منها، حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع"، ثم جعل لكل بيت في القصيدة ألف درهم، وربما لو أدرك مروان مثل هذا الإعجاب أو التراجع عن الصد الذي ظهر من الخليفة أولاً، لجعل من القصيدة أبياتاً كثيرة ليحقق النوال الأكثر الذي يرجوه.

وعلى نحو مماثل برز أبو العتاهية[1] كشاعر مخضرم في المدح ثم الزهد، ولم تكن زهديات أبي العتاهية دليلاً على زهده، فإنه أشعر الناس في الزهد وليس أزهدهم، وكانت أشعاره في مدح الخلفاء والثناء عليهم توحي بقدرته الفائقة على صناعة الشعر وإجادته دون سواه، وقد اتفق في أكثر من موطن إعجاب الخليفة المهدي به كإعجابه بمروان بن أبي حفصة، مما يؤكد حالة الثراء الفاحش الذي وصل إليه أبو العتاهية من خلال التكسب بالشعر، فجاء في رواية للشاعر المشهور أشجع السلمي أن الخليفة المهدي أذن للناس في الدخول عليه، قال: فدخلنا، فأمرنا بالجلوس، فجلس بجنبي بشار بن بُرْد وسكت المهدي فسكت الناس، فسمع بشار حساً فقال لي: من هذا؟ فقلت: أبو العتاهية، فقال: أتراه ينشد في هذا المحفل؟ فقلت: أحسبه سيفعل، قال: فأمره المهدي أن ينشد، فأنشد:

ألا ما لِسيِّدتي ما لَها ... أدلَّتْ فأحْملَ إدلالَها

قال: فنخسني بشار بمرفَقِه وقال: ويحكَ ! أرأيت أجسر من هذا؟ينشد مثل هذا الشعر في مثل هذا الموضع، حتى بلغ إلى قوله:

أتَتْــه الــخلافــةُ منقــادةً ... إليْــه تجــرِّرُ أذيالَــها
فلــم تــكُ تَصلُح إلا لـــهُ ... ولم يكُ يصـــلح إلا لها
ولـــو رامَها أحـــدٌ غيــرهُ ... لَزلْزلَت الأرض زلزالها
ولو لم تطعْهُ بنات القلوب ... لمـــا قَبِل الله أعمـــالها

---

[1] أبــو العتاهــية(748 – 826م): إسماعيل بن القاسم العيني، ولد ونشأ قرب الكوفة وسكن بغــداد، يجيد القول في الزهد والمديح، ويعد من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما، توفي في بغداد. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، 1 / 219.

فقال لي بشار انظر ويحك يا أشجع، هل طار الخليفة من عرشه؟ فقال أشجع: فوالله ما انصرف أحد عن هذا المجلس بجائزة غير أبي العتاهية[1].

وبالرغم من مصادفة أبي العتاهية للعطايا والجوائز دون غيره، إلا أنه أراد أن يسلك غير مسلك الغنى، واتخاذ الشعر مكسباً، فهجر الشعر وأخذ يميل نحو التجرد في الحياة، غير أن الخليفة المهدي الذي أعجب بشعره منعه من ذلك، وبلغ به الأمر أن أحضره وأودعه السجن مدة، وإمعاناً في الإذلال والوعيد هدده بالقتل إن لم يرجع إلى قول الشعر، فأذعن أبو العتاهية لأمر المهدي وسلطانه، وعاد إلى نظم الشعر فأطلقه المهدي من السجن. وعلى كل حال لم تكن نفسية أبي العتاهية بعد إطلاقه من السجن خالية من التأملات المرهفة للإقلال من مباهج الحياة وزخارفها الخادعة، وتكشفت ميوله ومشاعره الحبيسة وربما ندمه وتوبته من الغلو في سالف أمره في تعظيم الخلفاء للإكثار من زاد الآخرة، والنظر إلى زينة الدنيا بأنها فانية لا محالة، ومنها قوله[2]:

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذلك إلى زوالِ

وفي موضع آخر يمتدح الظن الجميل بالله تعالى، ويذم السؤال ومدّ الحاجة لغيره[3]:

سبحانَ من يُعْطي بغير حسابِ ... ملكِ الملوكِ ووارثِ الأسبابِ
يا نفس لا تتعرّضي لعطيّةٍ ... إلا عطيّة ربّك الوهابِ

وفي أجمل المقطوعات الشعرية يتفنن أبو العتاهية في تصوير راحة النفس وسعادة العيش بالركون إلى الزهد الحقيقي المتمثل بعيش الكفاف وخفة المؤونة[4]:

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1 / 221 - 222.
(2) أبو العتاهية، الديوان (بيروت، دار صادر، 1980)، ص 338.
(3) المصدر نفسه، ص 54.
(4) المصدر نفسه، ص 488.

رغـيف خـبزٍ يابـسٍ		تأكلـه فـي زاويـةْ
وكـوزُ مـاءٍ بـارد		تشربـه مـن صافيةْ
وغـرفـةٌ ضـيـقـةٌ		نفسـُكَ فيهـا خاليـةْ

ومن شعراء التكسب أبو تمام[1] الذي قيل إنه كان يحفظ عشرة آلاف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع، ومدح الخلفاء ووصل إلى الغنى العميم واليسار في العيش، وقيل لما أنشد أبو تمام قصيدته البائية المشهورة لأبي دُلف العجلي، والتي أولها:

على مثلهن من أربُعٍ ومَلاعبِ		أُذيلَتْ مصوناتُ الدّموعِ السَّواكبِ

استحسنها وأعجب بها وأعطاه عليها خمسين ألف درهم، وقال له: والله إنها لدون شعرك[2]. ولكن أبو تمام كان شديد الإلحاح في التكسب، والذي لا يخلو من الحرص والطمع، ويطلب الاستزادة في كل شيء، ويروى له موقف آخر مع ممدوحه أبي دلف العجلي، فمدحه أبو تمام:

يا طالبـاً للكيميـاء وعلمـه		مدْحُ ابن عيسى الكيمياءُ الأعظمُ
لو لم بكن في الأرض إلا درهمٌ		ومدحته لأتـاك ذاكَ الدرهـمُ

وقيل أنه أعطاه على هذين البيتين عشرة آلاف درهم، ولكنه أغفله قليلاً ثم دخل عليه وقد اشترى بتلك الدراهم قرية في نهر الأبلّةِ، فأنشده:

بك ابتعتُ في نهر الأبلّة قريةً		عليها قُصَيْرٌ بالرّخام مَشيدُ
إلى جنبها أخت لها يعرضونها		وعندك مالٌ للهبات عتيدُ

---

[1] أبو تمام (804 – 846 م): حبيب بن أوس الطائي، ولد بجاسم)من قرى حوران)، رحل علـى مصر واستقدمه المعتصم إلى بغداد فقدمه على شعراء وقته ثم ولي بريد الموصل، له تصـانيف مـنها فحول الشعراء، وديوان الحماسة، ومختار أشعار القبائل. انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 8 / 242 – 243.

[2] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2 / 14.

فقال له: كم ثمن هذه الأخت؟فقال: عشرة آلاف درهم، فدفعها إليه ثم قال له: تعلم أن نهر الأبلّة عظيم وفيه قرى كثيرة وكل أخت إلى جانبها أخرى، وإن فتحت هذا الباب اتسع عليَّ الخرق، فاقنع بهذه ونصطلح عليها فدعا له وانصرف[1].

وقد وصل الجشع والحرص عند أبي تمام في التكسب أنه يطلب الحقير من الأشياء قياساً إلى القرية أو المال الوفير الذي حصل عليه، وفي هذا الجانب قيل أنه كان يطلب الكسوة، متمثلاً قول المهلب بن أبي صُفرة لبنيه: يا بَني، أحسن ثيابكم ما كان على غيركم، فأشار أبو تمام إلى هذا المعنى لممدوحه الذي طلب منه الكسوة[2]:

فأنت العليم الطَّبُّ أي وصيةٍ بها كان أوصى في الثياب المهلبُ

ومن الشعراء قريبي العهد بأبي تمام، ممن يشار إليه بالعادة كطبقة واحدة، البحتري والمتنبي، وهما على قدرهما كان لهما نصيب وافر في التكسب، ولا تخلو حياتهما من التزلف للسلطان والانخراط مع حاشية الخليفة طمعاً في المزيد من الثراء وعلو الجاه، ولا شك أن شعر المدح لأجل المال لا يعصم صاحبه من الوقوع في المحرمات في ديوان الخلافة، لأن بيئة الشعر في الديوان أو البلاط تكون مصحوبة غالباً بألوان فنية متنوعة، منها ما يندرج في فضائل الأخلاق ومكارم الأعمال، ومنها وهو الأكثر شيوعاً، ما يندرج في اللهو والمجون الهابط، وذلك أن حياة الترفُّه والبذخ في قصور الخلافة حسب المصادر التاريخية هي نوع من العلاقات الاجتماعية المعقدة، ويمكن أن تتم صياغتها بأدوار ليست بسيطة أو سهلة بالرغم من أنها تعتمد على أساليب الغلمان والجواري ودسائس الحريم.

فأما البحتري فقد دهمته حظوظ الثراء ابتداءً بسبب تنبؤاته للمعتز بالله في سجنه بأنه سيلي الخلافة، والمعروف أن المعتز بويع له بالخلافة وهو ابن تسع

---

[1] المصدر نفسه، 4 / 74.
[2] المصدر نفسه، 5 / 353.

عشرة سنة ولم يلي الخلافة قبله أصغر منه، ومات مقتولاً عن أربع وعشرين سنة، فيروي الكتبي في " فوات الوفيات " أن البحتري دخل على المعتز وهو محبوس قبل أن يلي الخلافة فأنشده أبياتاً:

جعلتُ فداكَ الدهرُ ليس بمنفكّ	منا الحادث المشكوّ والنازلِ المشكـــي
ومـــا هذه الأيـــام إلا منـــازلٌ	فمن منزلٍ رَحْبٍ إلى منـــزل ضنـــكِ
وقـــد هذبتـــك الحادثاتُ وإنما	صفا الذهـــب الإبريـــز قبلك بالسـبكِ
أما في رسول الله يوسف أسوة	لمثلك محبوساً علـــى الظلـــم والإفـكِ
أقام جميـــل في السجـــن برهةً	فآل بـــه الصبر الجميـــل إلى الملـــكِ

قال البحتري: فدفع الورقة إلى خادم على رأسه وقال احتفظ بها فإن فرَّج الله تعالى ذكّرني لأقضي حاجتهم، وكان مع البحتري صاحبه أبو المعشر المنجم، وكان أبو معشر قد أخذ له طالعاً لمولده فحكم له بالخلافة بمقتضى الطالع، فلما ولي الخلافة أعطى كل واحدٍ منا ألف دينار، وأجرى له في كل شهر مائة دينار[1].

وأمام هذه الرواية تتضح خبرة بعض الشعراء ومعرفتهم الدقيقة لضروب التكسب كعلم وفن مبثوث في الشعر سواء بسواء، والواقع أن الاتصال بالخليفة منذ فترة مبكرة يمهد للشاعر الوصول للرتبة والجاه الذي يريده. ولا يخفى أن الثراء الفاحش يكون محدوداً أو متوارثاً كابراً عن كابر، وهو ما حدث فعلياً مع أحفاد البحتري وورثته، ففي رواية ينقلها التنوخي في كتابه " نشوار المحاضرة " يذكر أن ضياع البحتري كانت في حيازة حفيد ولده، يقول أبو الفتح بن جعفر بن الفرات المشهور بابن حنزابة أنه بعد عودته من مصر والشام، في أيام الراضي، وكان ابن الفرات متقلداً الوزارة، اجتزت في رجوعي هذا، على مدينة السلام، بمنبج، فرأيت ضياعاً في نهاية العمارة والحسن. فسألت عنها، فقيل: هي إقطاع البحتري الشاعر

---

[1] محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة، د. ت.)، 3/ 319 - 320.

وأملاكه. فقلت: لمن هي اليوم؟ فقيل لي: هي اليوم في يد ابن ابنة ابنة أبي الغوث. فقلت هذا نسب طويل، وأمرت الحسن بن ثوابة بقبضها، فلما كان من الغد، جاءني رجل متكهّل، في زي الجند، وذكر أنه صاحب الضياع، وقال يا سيدي، هذه الضياع التي قال جدي البحتري بسببها:

وما أنا والتقسيط الذي تكتبونه ويكتب قبلي جلّة القوم أو بعدي

وأنشدني هذه الأبيات كلها، وقال: ذلك بكاء لأجل تقسيط يسير، فكيف يكون حالي، إذا قبضت هذه الضياع؟ قال: فتذمّمت أن أكون سبب ذهاب معيشته، فأطلقت له عنها[1]. ولكن من الجدير بالانتباه أن الأبيات التي أنشدها البحتري وحصل بسببها على هذا الملك الكبير لا تتجاوز (9) أبيات شعرية، يقول في خاتمتها:

سبيلي أن أعطي الذي تسألونني وحقّي أن يُجدي علَيّ ولا أجدي
تبعثُ رجالاً أطلب المال عندهمُ فكيف يكون المالُ مطلباً عنـــدي

وأما المتنبي فقد نظم معظم قصائده في كنف بلاط سيف الدولة الحمداني، وربما أدرك سيف الدولة أن رعاية الشعر والشعراء الكبار فيه تسلية ومؤازرة له، لأن حملاته ضد الكفار باءت بالفشل[2]، فكان المتنبي من الدعاة الذين يذودون عن سيف الدولة، ونتيجة للدور المهم الذي يضطلع به لم ينتقص من حقوقه شيئاً فآل إليه الغنى والجاه، فصار كالبحتري في القدرة على الوصول إلى تملك الضيـــاع والأراضين، يقول صاحب معجم البلدان: "سبعين بلفظ العدد قرية بباب حلب كانت إقطاعاً للمتنبي من سيف الدولة وإياها عنى بقوله:

أسير إلى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بحسامه[3]

---

[1] المحســـن بـــن علـــي التنوخـــي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي (بيروت، 1973)، 8 / 59.

[2] كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص 212.

[3] ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 / 185.

ولكن الثراء الفاحش الذي وصل إليه المتنبي كان سبباً في مقتله، ونسب العلماء في قتله أكثر من رواية، فقيل أن المتنبي قتل عندما رجع من شيراز يريد بغداد عام 354 هجرية، وكان معه مال كثير يقال أنه وصل إليه من عضد الدولة مائتي ألف درهم، فقتلته العرب لأخذ ماله، والقصيدة قصيدته التي فيها:

ولو أني استطعت حفظت طرفي فلم أبصر به أراكـــا

وفي آخرها:

وأياً شئتِ يا طُرُقي فَكُوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكا

فجعل قافية البيت الهلاك فهلك، وذلك أنه ارتحل عن شيراز بحسن حال وكثرة مال ولم يستصحب خفيراً، فخرج عليه أعراب فحاربهم فقُتل هو وابنه محمد وفاز الأعراب بأمواله. وفي رواية أخرى لمقتله أنه وفد على عضد الدولة وهو بشيراز ثم صحبه إلى الأهواز فأكرمه ووصله بثلاثة آلاف دينار وثلاث كساء، في كل كسوة ثلاث قطع وثلاثة أفراس بسروج محلاة ثم دس عليه من سأله أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة بن حمدان، فقال المتنبي هذا أجزل إلا أنه عطاء متكلف فاغتاظ عضد الدولة وأذن لقوم في قتله[1].

---

(1) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الطبعة الأولى (حيدر آباد، الدكن، وطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1360 هجرية)، 7 / 26 – 27.



المبحث الثاني: الاكتساب ومزايا الثراء

إن التكسب بالشعر يصنع أغنياء ومترفين ولكن ليس بالمال وحده، لأن الثراء بحد ذاتــه يحقق مزايا إضافية، فالشاعر الذي يتبوأ منزلة عالية لدى البلاط أو ديوان الخلافة لا يقنع إلا بالجاه وعلو المنزلة، وهي استحقاقات غير مستحيلة أو صعبة المنال، وبخاصة أن الشعراء الفحول يتمتعون بعلاقات قوية مع الخلفاء والسلاطين، ونتيجة لذلك أصبح الثراء غير منحصر في معاني المال الثلاثة ؛ النقدين والأرض والسوائم، وإنما يؤدي للوصول إلى مراكز السلطة واتخاذ القرار، وهو من أهم مظاهر الغنى والجاه، فيُذكر أن هارون الرشيد قام بإسناد وظائف هامة لبعض الشعراء، ومنهم نصيب الأصغر الذي ولي بعض كور الشام ودعبل الخزاعي الذي استعمله الرشيد مدة عاملاً على أسواق مصر. وفي خلافة المعتصم كان أبو تمام مسؤولاً عن بريد الموصل، كما ولّى المعتصم علي بن الجهم ديوان المظالم بحلوان.

ومما يجدر ملاحظته أن الثراء كمعنى مطلق في الاكتساب لم يستحوذ عليه الشعراء وحدهم، وإنما استفادت معظم الشرائح الاجتماعية التي تمتهن الاكتساب من تحقيق درجات مهمة في سلم الارتقاء إلى الغنى، وذلك باستخدام ضروب فنية غير الشعر كالغناء والكتابة مما يحقق الرضى والقبول عند مراكز القوى واتخاذ القرار.

وتماماً كما حصل مع دحمان الأشقر الذي سبقت الإشارة إليه بأنه من أشهر المغنين وقد حصل من المهدي على خمسين ألف دينار لأغنية غناها في شعر الأحوص في ليلة واحدة[1]، فهناك المغني الذي يدعى الغريض ويكنى أبا مروان، وكان يضرب بالعود وينقر بالدف، ولكنه ترك حرفته في الخياطة واستغل موهبته في الغناء، واستطاع بذلك أن يكون ذا ثراء فاحش، ويروى أنه قام بتسخير موهبة الغناء للصلح بين عبد الملك بن مروان وزوجه عاتكة، فأمر له كل ما طلب؛

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، 6 / 23.

مزرعة بعدّتها وما فيها، وألف دينار، وفرائض لأهله وولده[1] . ومثله وصل إلى الغنى الشاعر المشهور أحمد بن عبد الله المعروف بمايه الرومي، وكان أوحد زمانه "وإليه المنتهى بالزجل والموال والموشحات[2] ".

ولكن المغني المشهور زرياب كان يعيش بسبب الغناء في حالة من اليسار والغنى والرياش الذي فاق فيه كل وصف، فيروي النويري في كتابه "نهاية الأرب" أن أحد المغنين ويسمى عَلُّويَة احتج على الخليفة المأمون وقال له: هذا مولاكم زرياب المغني يركب في مائتي غلام مملوك له، ويملك ثلاثمائة ألف دينار وهبها له بنو العباس سوى الخيل والضياع والرقيق[3]. إن بروز أغنياء في المجتمع الإسلامي سواء في العهد العباسي أو الأموي يماشي طبيعة الحياة التي توصف بالترف في بيوت الأمراء والسلاطين، ومن الطبيعي أيضاً أن ينال المغنون والمطربون قسطاً من الثراء، ومثلهم الذين يضربون بالدفوف ويقرعون الطبول ويغنون الموشحات ويصدحون بالمواويل، وذلك أن حالة اللهو ظاهرة عامة في قصور الخلافة تستوجب إضفاء أجواء خاصة تتفاعل فيها أصوات الشعراء والمغنين وغيرهم، وكما هو واضح أن ثروة زرياب المغني من العبيد والخيل والضياع علاوة على آلاف الدنانير من الذهب لا تدعو مجالاً للشك أن المغنين، وخصوصاً المخضرمين منهم، لا يختلفون عن فحول الشعراء في الوصول إلى الجاه والغنى، غير أن الشعراء يصوغون نظْماً تعيشه الأجيال من بعدهم، بينما الأصوات الحسنة تذهب بذهاب المغنين أنفسهم. ومن غير شك أن الصوت الشجي ونعومة الأداء الذي يعتمد عليه فن الغناء يعطي فرصة حقيقية للمرأة أكثر من الدور الذي يمكن أن يلعبه الرجال، ومثلما شاع خبر زرياب كرجل موهوب في

---

[1] المصدر نفسه، 4 / 384.

[2] عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت، دار الآفاق الجديدة، د. ت.)، 8 / 413 – 414

[3] أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، 3 / 146.

الغناء، ظهرت مغنيات يلعبن نفس الدور في أكثر المجالس لهواً، ويحقق أيضا رتبة ومنزلة كبيرة في الثراء الفاحش. فالمرأة التي تتمتع بقدرة عالية مطبوعة بحركات رشيقة، وتستعرض قواماً ممشوقاً بحركات أخرى ساحرة كسحر الأريج الفواح بالشذى، وهي في كل الأحوال لا تخلو من إظهار الطبيعـــة الأنثوية، إنه بدون شك يفضي إلى تفوق في المواهب والملكات.

يشير ابن الجوزي في " المنتظم " إلى أن إسحاق بن أيوب أُعجب بمغنية، وكانت جارية، فعرض لمولاتها في ثمنها مائة ألف دينار وللسفير بينهما عشرين ألف دينار، فدعت السيدة جاريتها المغنية وأخبرتها في الحال، ولكن الجارية رفضت البيع، فما كان من السيدة إلا أن أعتقتها من وقتها، ولما ماتت خلفت مالاً كثيراً وضياعاً ما ملكها رجل قط[1]. ويَذكُر ابن تغري بردى قصة مشابهة في كتابه " النجوم الزاهرة " وهو أن السلطان الناصر محمد بن قلاون أنعم على مغنية قدمت معه من دمشق من جملة مغانيه بعشرة آلاف درهم، ووصل لها من الدور ثلاث غير الكسوة والأقمشة الفاخرة[2].

إذن، التكسب بالغناء صورة أخرى مشابهة للتكسب بالشعر. ويشترك كل منهما في طـــرق سريعة للغنى، غير أن الشعر أدوم للبقاء وأجزل في العطاء، ويمكن أن يتقوله من ليس بشاعر، وكما هو معروف فإن انتحال الشعر ظاهرة عامة يلجأ إليها بعضهم للارتزاق، وفي المقابل لا يحتمل أسلوب الغناء أشكال السطو أو الانتحال كالشعر إلا بقدر يسير من المحاكاة والتقليد.

وأما الكتابة والتصنيف فكانت رائجة على نحو مختلف، وخصوصاً أن العلماء والفقهاء، هم أكثر الناس اشتهاراً بالتآليف النفيسة، وليسوا كالشعراء وغيرهم في طلب الثروة وتحصيل الثراء، وقد قام علماء المسلمين بدور هام بالنهوض بالثقافة الإسلامية وصياغة مبادئها وأهدافها وأحكامها التشريعية للمجتمع الإسلامي.

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 6 / 129.

(2) ابو المحاسن يوسف بن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الطبعة الأولى (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1956)، 9 / 130.

وكان علماء المسلمين قادة ومصلحين لهم مكانة مرموقة لدى أفراد المجتمع، وهم لا يختلفون في أغلب الأحوال عن الأمراء والساسة في كسب ولاء الرعية والتمتع بالسلطة والقيادة.

ومن هنا كانت الاتصالات بين العلماء والأمراء مشهودة في مواقف كثيرة، ومنها الكتابة والتصنيف. ويمكن توضيح جانب مهم للعلاقة القائمة بين الطرفين والتي تتمثل بطلب الخليفة أو السلطان بوضع مصنفات في مجالات محددة، أو يقوم العالم بإهداء مصنفه إلى الخليفة أو من يمثله، أو الحالتين معاً، فمثلاً يطلب الخليفة الكتابة في موضوع ثم يقوم العالم بدوره بإهداء الكتاب بعد تصنيفه إلى الخليفة نفسه.

وللمثال على هذا الجانب المهم، لا للحصـــر، قام عبد الله بن المقفع (109 – 145هجرية) بكتابـــة "رسالة الصحابة" إلى الخليفة المنصور العباسي، عندما كلفه بذلك عيسى بن علي وأخوه سليمان والي البصرة. وصنف أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم (113 – 182 هجرية) كتاب "الخراج" لهارون الرشيد بناءً على طلب سابق منه. وقدَّم شهاب الدين بن أبي الربيع (ت 227 هجرية) كتابه "سلوك المالك في تدبير الممالك" إلى الخليفة المعتصم العباسي. وقدَّم إمام الحرمين الجويني (419 – 478 هجرية) كتابه "غياث الأمم في التياث الظلم" إلى نظام المُلك وزير إلب أرسلان وملك شاه. وألف الطرطوشي محمد بن الوليد (451 – 520 هجرية) كتاب "سراج الملوك" إلى أبي عبد الله محمد الأموي. وألف أسعد بن مماتي (544 –606 هجرية) كتاب "قوانين الدواوين" إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي. وقدَّم محمد بن منصور الحداد الموصلي (كان حياً 673 هجرية) كتاب "الجوهر النفيس في سياسة الرئيس" إلى بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل الذي كان موصوفاً بالضعف أمام الأعداء والقسوة على الرعية، وغيرهم كثير. ولكن ربما يتبادر إلى الذهن، سؤال عن طبيعة العلاقة المشتركة بين الاكتساب وبين الكتابة للمراكز والفئات العليا في المجتمع؟ وبخاصة أن الذي يتصدى للكتابة نخب الثقافة ورموز العلم في المجتمع.

إن الاكتساب في هذا المجال لا يقبل التعميم بقدر ما يخص حالات معينة، ولكن على بطريق مغايرة يبرز مفهوم الاكتساب كسلوك عفوي أو هدف غير مخطط له بالأصل يحقق مزايا إضافية. ولقد نبه العالم المشهور حجة الإسلام الغزالي إلى أدنى المزايا أو المكاسب التي تلحق بالعلماء نتيجة الاتصال المباشر بمراكز السلطة، والمعروف أن الإمام الغزالي أكثر العلماء تصنيفاً وكتابة للسلاطين، فقد ألف كتابه "التبر المسبوك في نصيحة الملوك" إلى السلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي باللغة الفارسيـــة، وقدَّم كتابـــه "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية" إلى الخليفة المستظهر بالله، وأما كتابه "سِرُّ العَالَمَين وكشف ما في الدارَين" فقد قرأه محمد بن تومرت من المغرب وهو أول من استحسنه واستفاد منه في تأسيس دولة الموحدين في المغرب. ولقد قامت علاقات قوية بين الغزالي ومراكز السلطة العباسية، فيقول الغزالي عن نفسه في رسالة بعث بها إلى السلطان سنجر: "اعلم أن هذا الداعي قضى ثلاثاً وخمسين سنة من العمر، وغاض أربعين سنة في بحور علوم الدين حتى وصل إلى مكانة مرموقة. وقضى عشرين سنة في أيام السلطان الشهيد ورأى منه في أصفهان وبغداد كثيراً من العطف والإقبال[1] "، ثم إن الغزالي باشر التدريس في أكبر مدرسة تمثل واجهة حقيقية للخلافة وهي "المدرسة النظامية " في بغداد، والمنسوبة إلى نظام الملك الذي دعاه للتدريس فيها.

غير أن الغزالي أدرك خطورة التناقض بين المعرفة الحقيقية وطلب المنزلة وعلو الجاه، فأوضح طريق النجاة من الواقع، فقال: "وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال.. ثم تفكرت في نيتي للتدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت[2] "، ومن هنا رفض الغزالي مكسب الجاه وانقطع عن التدريس وتغيرت حالة الرفاه التي كان يعيش فيها، فبعدما كان يتقَوَّم ملبوسه ومركوبه بخمسمائة دينار، ويلبس الذهب والحرير،

---

[1] أبو حامد الغزالي، فضائل الأنام، ترجمة نور الدين آل علي (تونس، الدار التونسية، 1970)، ص34.

[2] أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق سميح دغيم، الطبعة الأولى (بيروت، دار الفكر اللبناني، 1993)، ص 80.

ويحضر مجلس علمه نحو أربعمائة عمامة صار يروض نفسه ويأوي القفار ولا يزيد على خمسة عشر قيراطاً في ملبوسه[1]، والواقع أن الغزالي يمثل نفسية ثائرة على الكسب والجاه في المجتمع، فشنع على السلطان سنجر قائلاً له: "فما يكون إذا خففت من ثقل أطواق الذهب التي في أعناق مواشيك[2]"، واعترض على المتكسبين وأولي السعة: "فهؤلاء همتهم جمع المال، والاستكثار منه، واكتساب الضياع والعقار والخيل المسومة والحرث، وكنز الدنانير تحت الأرض..[3] "، وحتى قدح في سلوك بعض المتصوفة الذين يخالفون حقيقة التصوف الذي انتمى إليه، فإنهم حسب قوله: "يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض[4]".

إن الغزالي الذي قيل في علمه "كأن الله جمع العلوم في قبة وأطلع الغزالي عليها[5]"، يعكس ظاهرة معرفية موسوعية في المجتمع الإسلامي، وحتى أن ثقافته لم تخل من المعرفة بالشعر، فقد وضع قصيدة "هائية" في النفس تضم (64)، وقصيدة " تائية " طويلة تشمل (366) بيتاً في التصوف[6]، والواقع أنه يمثل حالة فريدة ونادرة في رفض القيم المادية ومتع الحياة، ولا شك أنه يمثل صورة واضحة

---

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 17 / 127.

(2) الغزالي، فضائل الأنام، ص 101.

(3) أبو حامد الغزالي، مشكاة الأنوار في توحيد الجبار، تحقيق سميح دغيم، طبعة أولى (بيروت، دار الفكر اللبناني، 1994)، ص91.

(4) أبوحامد الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سميح دغيم، طبعة أولى (بيروت، دار الفكر اللبناني، 1993)، ص7

(5) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، طبعة ثانية (يتسبادن، فرانز شتاينر، 1961 م)، 1 / 276.

(6) جلال شوقي، " الشعر في تراث الغزالي "، الإمام الغزالي: الذكرى المئوية التاسعة لوفاته، ص 170 - 180.

لأفضل نموذج ممن أثروا المعرفة بإسهاماتهم الفكرية، ولكن في إطار شديد الالتزام بتعاليم الإسلام وربما على نحو مفرط إلى حد ما.

وفي المقابل كان بعض العلماء يتمتع بحظ وافر من الثروة الطائلة بسبب التصنيف والكتابة، وخلافاً لحالة الإمام الغزالي، يمكن اعتبار الجاحظ أحد رموز العلم الكبرى في مجال الاكتساب بالمصنفات والكتابة، علماً بأنه أيضاً من الذين يشار إليهم بالكتابة إلى مراكز السلطة، فقد صنف كتابه "التاج في أخلاق الملوك" إلى الفتح بن خاقان، غير أن الجاحظ يروي تجربته في التكسب بوضوح، فيقول: "أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أبن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تحديد ولا تسميد[1]". إنها صورة واضحة للثراء الفاحش بسبب الكتابه والتأليف، ولكنها غير قابلة للتعميم من كل الجوانب، ومن النوادر في هذا الباب ما ذكره النعيمي في كتابه "الدارس في تاريخ المدارس"، فقال: "ويومئذ وصل الخبر أن كاتب السر بدر الدين بن مزهر توفي، وكـــان ولده جلال الدين (814 – 833 هجرية) استقر في كتابة سر مصر عوضاً عن والده بمائة ألف دينار، وهو صبي صغير عمره نحو خمس عشرة سنة[2]".

---

[1] الفهرست لابن النديم، ص 210.

[2] عبد القادر محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني (دمشق، المجمع العلمي العربي، 1948)، 1 / 628



الفصل الرابع

مفاهيم اقتصادية في شعر التكسب

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الشعر والتجارة

المبحث الثاني: شعر التكسب وقانون العرض والطلب



الفصل الرابع

مفاهيم اقتصادية في شعر التكسب

إن التكسب من خلال الشعر يرتبط بعمليات تبادلية تتم من خلال السوق والأنشطة التجارية، ومن ثم لا يخرج مفهوم الشعر في مجال التكسب عن كونه سلعة كأية سلعة اقتصادية، حيث تخضع لتأثير قوى العرض والطلب عبر آلية جهاز السوق أو جهاز الأسعار. وبدون شك أن الأجر أو السعر التوازني لسلعة الشعر لا يتم تحديده خارج السوق أو تفاعلات الطلب الناتجة عن رغبة المستهلك (الممدوح) وتفاعلات العرض الناتجة عن رغبة المنتج (الشاعر)، إلا أن الملاحظ على عمليات التبادل في الشعر كسلعة اقتصادية أنها توضح صورة للاختلالات الممكنة بين الأجر المتحقق والجهد المبذول في إنتاج السلعة. وقد جاء هذا الفصل في مبحثين موضحاً أهم الجوانب الاقتصادية في شعر التكسب:

المبحث الأول: الشعر والتجارة

المبحث الثاني: شعر التكسب وقانون العرض والطلب



المبحث الأول: الشعر والتجارة

إن تجارة الشعر لا تعني انتقال ملكية السلعة المباعة من البائع للمشتري كأية عملية تبادلية أخرى، إلا أن الشعر لأجل التكسب ينظم في مناسبات كثيرة لأشخاص بأعيانهم، فتتضمن القصيدة الوصف الدقيق للممدوح أو من يجري مجراه سواء كان الوصف للكنية أو الشهرة أو حتى الاسم الصريح علاوة على الصفات العامة التي تشبع أذواق الممدوحين (المستهلكين)، وهي بطبيعة الحال صفات مثلى كالشجاعة والكرم والنسب وما شابه ما لم يكن الشعر من أشكال أخرى غير المديح كالهجاء والرثاء.

ومن هنا فالشعر التكسبي يدل على وجود علاقة تملكية بين البائع والمشتري ولكن ليس للعين أو الرقبة وإنما للمنفعة القابلة للإشباع، بمعنى أن هناك انتقال للملكية في حدود المنفعة المطلوبة أي ملكية انتفاع.

ومن المهم ملاحظة أن التجارة ترتكز بشكل أساسي على عمليات سوق مفتوحة، يلجا البائع من خلالها إلى تسويق بضاعته بشتى الوسائل الممكنة، وأهمها قطع الفيافي والتنقل في الأسفار والضرب في مناكب الأرض، وقد أشار القرآن إلى أهمية السفر للتجارة في أكثر من موضع، ومنه قوله تعالى:

وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ [1]

وقوله تعالى:

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ [2]

[1] سورة المزمل، الآية 20.

[2] سورة الملك، الآية 15.

ولقد قام الشعراء بدور تجاري حقيقي من خلال عرض بضاعتهم الشعرية في نطاق سوق أوسع، وكانوا يواجهون فيه مخاطر السفر ومفاجآت الطريق، وقد وصف العديد منهم ما يكابدونه من تعب ومشاق للوصول إلى الممدوحين في أصقاع بعيدة، فأشار ابن قتيبة[1] وابن رشيق إلى تلك الجوانب المهمة في رحلات الشاعر وأسفاره، فقال ابن رشيق: " والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز، وما أفضى من الركائب، وما تجشّم من هول الليل وسهره، وطول النهار وهجيره، وقلة الماء وغؤوره، ثم يخرج إلى مدح المقصود ليوجب عليه حق القصد وذمام القاصد ويستحق منه المكافأة[2] ". وفي هذا الجانب يمكن اعتبار الأعشى أحد أبرز الشعراء المتكسبين في الجاهلية ضرباً في مناكب الأرض، فقد تنقل في الجزيرة العربية مسقط رأسه مسافراً من أدناها إلى أقصاها، ثم رحل إلى اليمن جنوباً ثم جاب الحيرة والشام وفلسطين شمالاً[3].

وأما في الإسلام فمعظم الشعراء المتكسبين مارسوا احتراف التجارة بالشعر متنقلين إلى أوطان غير أوطانهم وبلدان أخرى بعيدة يحتاجون لقطعها إلى ليالٍ طويلة وأحياناً إلى أشْهُر كما صرح بذلك بعضهم.

ومن هؤلاء الحطيئة، وقد سبقت الإشارة إليه في موقفه مع عمر بن الخطاب عندما أعطاه الكتاب وذهب به إلى علقمة بن علاثة مسافراً من المدينة إلى حوران بالشام.

ومنهم الشاعر مروان بن أبي حفصة أكثر الشعراء تكسباً في الإسلام، وقد روي عن ابن سلام أن الشاعر مروان بن أبي حفصة لما أنشد للمهدي قصيدته التي يقول فيها:

---

(1) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، الطبعة الثالثة (القاهرة، دار المعارف، 1982)، 1 / 74 - 75.

(2) أبـــو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى (القاهرة، مطبعة حجازي، 1953)، 1 / 198.

(3) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 9 / 91.

إليك قسمنا النصف من صلواتنـــا مسيرة شهـــر بعد شهر نواصله
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا لديك ولكن أهنأ العيش عاجلــه

فقال له المهدي، قف بحيث أنت، كم قصيدتك هذه من بيت؟ قال سبعون بيتاً، قال: فلك سبعون ألفاً، لا تتم إنشادك حتى يحضر المال، فأحضر المال، فأنشد القصيدة وقبضه وانصرف[1]. فالرواية تدل بوضوح على أن الثروة الطائلة التي جمعها مروان بن أبي حفصة كأفضل شاعر في التكسب لم تتحصر في أسواق مكانية محدودة وإنما كان يحتاج إلى شهر بعد شهر، أي يلزمه مده زمنية طويلة، الأمر الذي أحوجه إلى قصر الصلاة كما دلّ على ذلك، للإشارة إلى حجم التكاليف في حمل البضاعة، والتلطف في الرجاء والسؤال ممّا دفع الخليفة إلى الإسراع في مكافأته وتعجيل الثواب.

ولعل الشاعر المعروف بصريع الغواني[2] كان أقرب إلى الصواب في تفسير شدة الصبر والمعاناة بترك الأهل والأوطان وفراق الأحبة وقطع المفاوز للوصول إلى الغرض المراد، فأوضح أن العلاقات بين الناس أصلها التعارف والتواصل، وهو من فحول الشعراء الذين طواهم الفقر والحرمان في بداية حياتهم، ثم انقاد لهم الشعر وكسبوا به الأموال العظيمة، ومنه قوله[3]:

لا يمنعنّك خفضَ العيش في دَعَةٍ نزوعُ نفسٍ إلى أهل وأوطـــانِ
تلقى بكـــل بلادٍ إن حلـــلت بهـــا أرضاً بأرضٍ وجيراناً بجيرانِ

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 189 - 190.

(2) صريع الغواني (ت 823 م): هو مسلم بن الوليد، مولى الأنصار المعروف بصريع الغواني، مدح الرشيد وآل برمك، لقبه الرشيد بصريع الغواني، لقوله:
هل العيش إلا أن أروح مع الصبا وأغدو صريع الكأس والأعين النُّجلِ
وقد لقي قبولاً عند العامة والخاصة من الناس، وكان يجلس في المسجد يملي شعره والناس يكتبون. انظر: محمد بن عمران المرزباني، الموشح (القاهرة، دار نهضة مصر، 1965)، ص 445.

(3) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 4 / 142.

ومن الشعراء الذين تكسبوا بأشعارهم واجتازوا مسافات طويلة أبو تمام، وكان من أغنياء الشعر حيث خاض في سبيل الغنى تجارب بعيدة في السفر، واستطاع أن يجمع ثروة هائلة برحلاته المعروفة خارج العراق، ومنها ما يرويه محمد يزيد النحوي، قال: خرج أبو تمام إلى خالد بن يزيد وهو بأرمينية فامتدحه فأمر له بعشرة آلاف درهم ونفقة لسفره وأمره أن لا يقيم إن كان عازماً على الخروج، فودعه ومضت عليه أيام فركب يزيد ليتصيد فرآه تحت شجرة وقدامه زكرة فيها نبيذ وغلام بيده طنبور فقال: حبيب؟ قال: خادمك وعبدُك، فقال له: ما فعل المال؟ فقال:

علّمني جودك السماح فمـــا	أبقيتُ شيئاً لديَّ من صـــلتك
ما مرَّ شهرٌ حتى سمحت به	كـــأن لي قـــدرة كمقدرتـــك
تنفق في اليوم بالهبات وفـــي	الساعة ما تجتبيـــه في سنتك
فلست أدري من أين تنفق لو	لا أن ربيّ يمـــد فـــي هبتك

فأمرله بعشرة آلاف درهم فأخذها وانصرف[1].

وللشـــاعر المعـــروف بحيص بيص[2] قصيدة طويلة في التكسب والانتقال والسفر ببضاعة الشعر، وهي من غرر القصائد، ولعله ممن عرف بنوادره وظرافة مجلســـه، فقـــد قـــيل في سبب تسميته حيص بيص أنه رأى الناس يوماً في حركة مـــزعجة وأمـــر شديد: فقال ما للناس في حيص بيص، فلزمه هذا اللقب، وكان من الفقهـــاء الشـــعراء اللذيـــن جمعـــوا بين الفقه ونظم الشعر، وأما في مجال التكسب

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2 / 24.

(2) حـــيص بـــيص: أبـــو الفوارس سعد بن محمد بن سعد التميمي المعروف بحيص بيص، كان شـــافعي المذهـــب، تكلم في مسائل الخلاف، إلا أنه غلب عليه الأدب ونظم الشعر، وكان يلبس زي العـــرب ويقلد سيفاً. ومعنى حيص بيص في اللغة: الشدة والاختلاط، يقال: وقع الناس في حيص بيص، أي في شدة واختلاط. توفي سنة 547 هجرية. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان 2 / 263، 265.

بالشعر، فإنه جمع ثروة من المال، وكانت له حوالة بمدينة الحِلّة يأتيه إيرادها بشكل دوري[1]، ويـــروى أنه قصد مغيث الدين محمد بن محمد بن ملكشاه السلجوقي من العراق، ومدحه بقصيدته الدالية التي أولها:

ألق الحوائجَ ترع الضمــرُ القــودُ	طال السرى وتشكت وَخْدَك البيدُ
يا ساريَ الليــل لا جَذْبٌ ولا فرق	فالنبت أغيــد والسلطان محمــودُ
قَيْـــلٌ تـــألفــتِ الأضـــدادُ خيفتـــه	فالمـــورد الضنك فيه الشاء والسِّيدُ

وهي قصيدة طويلة من أروع القصائد التي قيلت في المدح، وقد حصل عليها على جائزة سخية[2].

إن التبادل التجاري القائم على ترويج البضائع والسلع عبر حدود مختلفة، وفي أقطار وبلدان عديدة، يعد من أهم الظواهر الاقتصادية التي تقوم على مبدأ تعظيم الربح، فالشعراء المتكسبون لا تنحصر معرفتهم ودرايتهم بفن الشعر فحسب، وإنما يدركون تماماً مبدأ " الميزة النسبية " في التجارة، فهم يعظمون المردود المادي طمعاً في الحصول على مردود أعلى لبضاعتهم، وفي العادة يكون الممدوح في صورة خليفة أو سلطان أو أمير ومن في شاكلتهم ممن أثر عنه الانفعال والتفاعل مع البضاعة المعروضة، فلا يقصد الشاعر إلا الأشخاص اللذين طبعت سيرتهم بحب الشعر كرماً وجوداً، وفي بعض الأحيان يكون العطاء مدفوعاً بحب الظهور وتعظيم المدح والثناء.

فالشـــعراء المتكسبون أقوام لا ينقصهم مبدأ التعظيم للربح والإيراد انطلاقا مـــن شـــعورهم بأهمـــية السلع النفيسة التي يعرضونها، والتي يجوزون فيها القفار والأودية للوصول للأثمان المطلوبة لبضاعتهم. وكان من عادة بعضهم أنه إذا أفشى قصـــيدته بيـــن الناس مادحاً أحدهم ولكن دون أن يحظى بالمردود أو السعر العادل

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2 / 363.

[2] المصدر نفسه، 6 / 182 - 183.

فإنـــه يـــتحول مـــن المدح إلى الهجاء لنفس الممدوح، كما سيأتي بيانه، وواضح أن التجارة تعتمد على مبدأ الجودة والمفاضلة بين السلع، علاوة على تعظيم الربح الذي يـــتم مـــن خلال التنقل والسفر، وأما الجودة وتفاعلات الرغبة بين الشعراء وغيرهم فيمكن بيانه في المبحث التالي.

المبحث الثاني: شعر التكسب وقانون العرض والطلب

فكما هو معروف في الاقتصاد يتعلق كـل من العرض والطلب بعامل الرغبة المشتركة بين المنتج والمستهلك، ويدل مفهوم العرض على الكميات المعروضة من البائع بينما يدل مفهوم الطلب على الكميات المشتراة من المستهلك، وأما تحديد كمية التوازن أي التساوي بين الكمية المعروضة والكمية المطلوبة فلا يتحقق إلا بوجود سعر عادل يرضى به طرفا المبادلة.

وعلى نحو مماثل يمكن الحديث عن شعر التكسب في إطار عمليات تبادلية قابلة للتكيف بين طرفي البيع والشراء، وبخاصة سلوك البائع (الشاعر) الذي يقوم بإنتاج سلعته (الشعر) حسب اتجاهات الطلب.

وقد ترجم الشاعر نصيب بن رباح في كهولته مبدأ التوافق بين إنتاج الشعر والسعر العادل، وذلك عندما قيل له: " هَرِمَ شعرُكَ، فقال: لا والله ما هرم، ولكنَّ العطاء هرم[1]! "، مما يدل على إدراك الشاعر لقيمة المثل في البضاعة، وأن عملية التكسب في الشعر هي عملية منظمة تخضع لقوانين سوقية لا تختلف عن أية عملية لبضائع أخرى غير الشعر. ويروى في هذا الجانب أخبار عديدة تؤكد اهتمام شعراء التكسب بالحصول عل الأجر العادل المماثل لجودة الشعر وقيمته، وفي المقابل تعكس الرغبة الحقيقية للمستهلك، أي جانب الطلب في الشعر، نفس التوافق والرضى لجودة الشعر الذي تحدد قيمته بأسعار أعلى. وقد أرسل الوليد بن يزيد وهو مقيم بدمشق، إلى عمار بن كبار وهو مقيم بالكوفة جائزة نفيسة على قصيدته الغزلية التي اهتز لها طرباً، وهي من القصائد الهابطة، والتي يقول في مطلعها:

حبّذا أنتِ يا سلا   مةُ ألفين حَبَّذا

وكان أن سمعها في بعض ليالي لهوه ومجونه فاستحسنها وطار في عشقها فأرسل إلى الشاعر عشرة آلاف درهم وعهداً بألا يُحدَّ في الشراب[2].

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، 1 / 344.

(2) المصدر نفسه 23 / 268 – 271.

كما أن الشعراء اللذين احترفوا التكسب لديهم رصيد احتياطي من سلعة الشعر حسب المناسبات المطلوبة، أي أن عملية العرض تحددها رغبة المستهلك وحاجته إلى البضاعة، لأن السعر الذي يرغب به المنتج ينبغي أن يصادف رغبة فعلية لدى المستهلك حتى تتم صفقة التبادل حسب رغبة مشتركة بين الطرفين، يقول الأصفهاني: " حدَّثني أبو المستهل قال: دخلت يوماً على سلمِ الخاسر وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي ببعضها أم جعفر وببعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية، فقلت له: ويحك، ما هذا؟ فقال: تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا، ولا يجعل بتاً أن نقول غير الجيّد، فنعدّ لهم هذا قبل كونه فمتى حدث حادث أظهرنا ما مكنـــاه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت[1] ".

وفي نفس الوقت يتمكن الشاعر من التحكم بالمخزون كما هو سائد في الاقتصاد، والتكاليف هنا يراها الشاعر في جودة الشعر، فيعزز مستوى البضاعة المنتجة حسب أذواق المستهلكين كمحدد لجانب الطلب والسعر الأمثل لطرفي التبادل. ويروى أن رجلاً قال لبشار: " إن مدائحك عقبة بن سلم فوق مدائحك كل أحد، فقال بشار: إن عطاياه إيّاي كانت فوق عطايا كلّ أحد، دخلت عليه يوماً فأنشدته:

حَرّم الله أن ترى كابن سَلْمٍ   عُقْبةِ الخير مَطْعِمِ الفقراءِ

فأمر لي بثلاثة آلاف درهم، أفألام على مدحي هذا[2]؟ .

وأما الشاعر ابن ميّادة[3] الذي أدرك أيام بني العباس فيحكى أنه مرّ ذات يوم على جعفر بن سليمان بن علي، وهو والي البصرة، فأنشد:

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، 19 / 230.

[2] المصدر نفسه، 3 / 188.

[3] ابن ميادة (ت 763 م): الرمّاح بن أبرد الذبياني، وميادة أمه، اشتهر بنسبته إليها، شاعر رقيق هجــاء، مــن مخضــرمي الدولــة الأموية والعباسية، وقيل أنه أشعر غطفان في الجاهلية والإســلام. انظــر: بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني (دمشق، 1965، 3 / 107.

يا جعفر الخيراتِ يا جعفرُ ليتكَ لا تُنعَى ولا تُقبرُ

فلم يعجب جعفر مستوى هذا الشعر وركاكته وخفته، فقال: يا رمّاح، قال: لبيك أيها الأمير، قال: أتمدح الوليد بن يزيد الفاسق بمثل ذلك الشعر وتمدحني بمثل هذا؟ قال: أيها الأمير إن مدح الشاعر على قدر العطية، وما عليَّ من فسق الوليد وقد أعطاني أربعمائة ناقة برعاتها وعبيدها وآلاتها؟ فأعجبه جوابه فأعطاه أربعمائة ناقة وقال له: قل الآن مثل شعرك الذي تقول فيه، فقال:

يُمنّونني منكِ الوِصالَ وقد أرى بأنّي لا ألقاكِ من دون قابلِ
وما أنسى مِ الأشياء لا أنسَ قولها وأدمعُها يُذرينَ حَشْوَ المكاحلِ
تمتع بذا اليومِ القصيرِ فإنّه رهينٌ بأيّام الشهورِ الأطاولِ[1]

وهناك مجالات أخرى لعلاقة شعر التكسب بجهاز الأسعار أو نظام السوق، ومنها الترويج للبضاعة والإعلان عنها، والمعروف أن عرض البضاعة بطريقة ترويج جاذبة لأذواق الآخرين أدعى للإنفاق، بل تعد أفضل وسيلة للتخلص من الكساد في المخزون، وقد استفاد بعض الشعراء من هذا الجانب في تحقيق مزايا جديدة، بمعنى أن الشاعر يواجه طلباً على نوع معين من الشعر يهدف إلى التخلص من بضاعة معينة أو الترويج لها أو الإعلان عنها، وذلك في إطار نظم شعري قادر على تحريك وتغيير أذواق المستهلكين. ولعل من أطرف المواقف الشعرية في هذا الجانب ما رواه الأصفهاني عن أخبار سعيد الدارمي المتوفى عام (101هجرية)، وقد كان تاجراً من أهل الكوفة، وكان خمَّاراً يبيع الخمر، قدم المدينة بِخُمُر فباعها كلّها وبقيت السود منها فلم تنفق فشكا ذلك إلى الدّارميّ، فقال له: لا تهتمَّ بذلك فإني سأنفقها لك أجمع، ثم أنشد:

قل للمليحةِ في الخمارِ الأسودِ ماذا فعلت بناسك متعبّدِ
قد كان شمَّر للصلاةِ ثيابَهُ حتى وقفت له ببابِ المسجدِ

[1] ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 107 - 108.

وغنى فيه فشاع في الناس، فلم يبق أحد في المدينة إلا اشترى خماراً أسود حتى نفد ما كان مع العراقي منها.

وربما لعب الشعر دوراً اجتماعياً في جانب الترويج والإعلان عن البضاعة، بحيث يتضمن هذا الدور الاستجابة لجانب الطلب ممثلاً بإيجاد حلول للمشكلات المتحققة، وهذا أشبه بكيفية إيجاد السبل الكفيلة لإنفاق وتصريف البضائع الكاسدة، وهي عملية تحتاج إلى مهارات تسويقية عالية في فن الترويج ووسائل الدعاية. وفي مجال الشعر التكسبي عُرف الأعشى في الجاهلية كشاعر متخصص في إقناع الآخرين وجذب اهتماماتهم نحو أغراض محددة، ويمكن الاستدلال بشعر الأعشى على قدرة الشاعر وتأثيره في الاستحواذ على الشعور العام وتغيير اتجاهات الطلب على المستوى الاجتماعي بطريقة توحي بوجود دوافع وأهداف إنسانية نبيلة، ولعل صاحب الأغاني أوفر رواية لهذه المعاني فيذكر أنه " جاءت امرأة إلى الأعشى، فقالت: إن لي بنات قد كسدن عليّ، فشبب بواحدة منهن لعلها أن تنفق. فشبّب بواحدة منهن، فما شعر إلا بجزور قد بعث إليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: زوجة فلانة.. فما زال يشبب بواحدة فواحدة حتى زوجهن جميعاً[1] . وفي موضع آخر ذكر صاحب الأغاني في خبر الأعشى حكاية مطولة في نفس المعنى، نذكرها حسبما جاءت في الرواية لفائدتها ومناسبتها للسياق، قال: " كان الأعشى يوافي سوق عكاظ في كل سنة وكان المحلّق الكلابي مئناثا مملقا، أي أنه لا يرزق غير الإناث وهو معسر فقير، فقالت امرأته: يا أبا كلاب ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر، فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا أكسبه خيراً، قال: ويحكِ ! ما عندي إلا ناقتي وعليها الحِمل، قالت الله يخلفها عليك، قال: فهل له بدّ من الشراب والمُسوح؟ قالت: إن عندي ذخيرة لي ولعلّي أن أجمعها.. قال: فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحد.. فنحر ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ثم سقاه وأحاطت بناته به، فقال: ما هذه الجواري حولي؟ قال: بنات أخيك وهن ثمان.. وخرج من عنده فلمّا

---

[1] المصدر نفسه، 9 / 115.

وافى سوق عكاظ إذ هو بسرحة عظيمة قد اجتمع الناس عليها، وإذا الأعشى ينشدهم:

لَعمْري لقــد لاحت عيونٌ كثيرةٌ	إلى ضـــوء نارٍ باليَفاعِ تُحَرَّقُ
تُشَـــبُّ لمقــروريْنِ يصطليـــانِها	وبات على النار الندي والمحلّقُ

قال: فشاع الشعر وسار في العرب، فما أتت على المحلّق سنة حتى زوج بناته[1] ".
وقد سار على خطى الأعشى بعض الشعراء في قبول الهدايا مقابل التشبيب بالنساء ومنهم الشاعر عمر بن أبي ربيعة، ولكن الرواية التي أوردها صاحب الأغاني في خبر الأعشى والمحلّق تنطوي على دلالات ومعاني اجتماعية مهمة تعكس إلى حدٍ ما أهمية المشاركة الجماعية ودورها في الوصول إلى عمق التجارب الإنسانية المؤلمة، ومنها حالة الفقر التي عاشها المحلّق وارتفاع تكاليف الإعالة الأسرية، وربما ارتفاع التكاليف الاجتماعية بسبب نظرة المجتمع إلى الأنثى عموماً. وبقدر حالة البؤس والحرمان للمحلّق تتضح في الوجه الآخر المكانة الاجتماعية للشاعر، والتي تعد مكانة عالية في التكسب مقابل وظائف اجتماعية محددة، وقد عبّرت عنها زوج المحلق " فما رأيت أحداً اقتطعه إلى نفسه إلا أكسبه خيراً ". وبوجه عام، فإن نظم الشعر لأجل المال يتوافق مع مفاهيم الاقتصاد في جوانب االسوق المرتبطة بتحديد السعر أو الأجر الأمثل لطرفي التبادل، مما يعني إدراك شعراء التكسب لمفهوم القوة التفاعلية بين العرض والطلب بشكل لا يختلف عن معرفتهم وخبرتهم في تحريك رغبات المجتمع وتغير أذواقه وتفضيلاته العامة.

ومن الظواهر الشعرية التي تشير بوضوح إلى سيادة المستهلك في سوق الشعر هي الطلب من الشاعر نظم قصيدة بعينها، أي وجود مناسبة معينة لدى المستهلك تحتاج إلى تصميم شعري متضمناً العناصر الأساسية التي تتمحور حولها المناسبة. وتعتبر قصيدة أبي العتاهية التي نظمها حسب طلب زبيدة وعلى لسانها

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، 9 / 111- 112.

وهي تعاتب المأمون من أهم الشواهد في مفهوم سيادة المستهلك. وسبب هذه القصيدة أن زبيدة قالت للمأمون: إن كنت فقدت إبناً خليفة لقد عوضت إبناً خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسألك الله أجراً على ما أخذ وإمتاعاً بما عوض، ثم أرسلت إلى أبي العتاهية أن يقول على لسانها أبياتاً في الشعر يستعطف بها المأمون، فأرسل أبو العتاهية هذه الأبيات:

ألا إن صرفَ الدهر يدني ويبعدُ	ويمتعُ بالألآف طرّاً ويُفــقدُ
أصابــت بريب الدهر مني يدي	فسلَّمتُ للأقدار واللهَ أحمــدُ
وقلت لريب الدهر إن هلكتْ يــدٌ	فقد بَقِيَت والحمد لله لي يــدُ
إذا بقي المأمــون لي فالرشيد لي	ولي جعفــر لم يُفقدا ومحمدُ

فلما قرأها المأمون استحسنها وسأل عن قائلها، فقيل له أبو العتاهية، فأمر له بعشرة آلاف درهم وعطف على زبيدة وزاد في تكرمتها والبر بها[1].

وواضح من عناصر القصيدة خصوصيتها وعدم ملاءمتها إلا للمناسبة التي قيلت فيها، مما يعني أن جانب الطلب يحدد المعروض من الشعر ضمن تفصيلات وتفريعات دقيقة، مثل جوهر المشكلة، وعناوين أسمائها والموعظة فيها بحقائق ثابتة كالموت والصبر والشكر. والواقع أن نظم الشعر كعرض سلعي يعتمد على جانب الطلب، يبرز كظاهرة ثابتة في سلوك بعض شعراء التكسب، فمثل أبي العتاهية وسلم الخاسر الذي سبقت الإشارة إليه وهو يُعد الأبيات لينعى أم جعفر، هناك غيرهم كثير مثل ابن الرومي والبحتري ومنصور النمري ومن على شاكلتهم.

وهناك جانب آخر على قدرٍ كبير من الأهمية يتمثل بتداول الشعر بين الشعراء كأية بضاعة أخرى، وقد اشتهر بعضهم بالتكسب بشعر الغير إما على سبيل الإجازة أو الانتحال[2]. ويرتبط هذا الجانب بصورة جلية مع حقيقة التجارة

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، 2 / 216.

[2] يقال: انتحل فلانٌ شعر فلان إذا ادعاه أنه قائله، والنِّحلةُ: الدعَوى. وتَنَحَّله: ادّعاه وهو لغيره. انظر: لسان العرب لابن منظور،باب اللام، فصل النون، 11 / 56.

المتضمنة لتعظيم الربح وتداولها بين التجار، ولكن في مجال تجارة الشعر لا يتم تصريف البضاعة على هذا الوجه ما لم تتصف بمزايا وجودة عالية، بمعنى أن الشعر ينبغي أن يكون من نظم فحول الشعراء أو من شابههم حتى ينتفع به من قبل الغير.

فيروي عبد الله بن محمد الزبيدي أنه كان جالساً عند الشاعر المشهور ديك الجن[1]، فدخـل عليـه حَـدَث فأنشده شعراً عمله، فأخرج ديك الجن من تحت مُصَلاَّة درجاً كبـيراً فـيه كثير من شعـره فسلمه إليه وقال: يا فتى تكسّب بهذا واستعن به على قولـك[2]. ومـن ذلك أن المهدي استقدم الشاعر المفضل الضبي، وهو يومها فقير جـداً، فأعطاه عطية ضخمة على أبيات كان يرويها للحسين بن مطير[3]. وذكر أبو سـعد السمعاني في كتاب "الأنساب" أن المشهَّر التميمي الشاعر وفـد على يزيد بن حاتم بإفريقية فأنشده:

إليك قسمنا النصف من صلواتنا	مسيرة شهر بعد شهر نواصلـه
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا	لديك ولكن أهنأ العيش عاجلـه

فأمر يزيد بوضع العطاء في جنده وكان معه خمسون ألف مرتزق، فقال من أحب أن يسرني فليضع لزائري هذا من عطائه درهمين، فاجتمع له مائة ألف درهم، وضم يزيد إلى ذلك مائة ألف درهم أخرى ودفعها إليه[4].

---

(1) ديـك الجـن (752 – 849 م): عبد السلام بن رغبان الكلبي، شاعر مجيد، فيه مجون من شعراء العصـر العباسي، سمي بديك الجن لأن عينيه كانتا خضراوين. افتتن بشعره الناس في العراق وهو فـي الشـام. والمعـروف عن ديك الجن أنه شعوبي يحمل على العرب ويفتخر بعدم انتسابه إليهم ويـتحمس لغيرهم. انظر: ديك الجن، الديوان، تحقيق أحمد مطلوب عبد الله الجبوري (بيروت، دار الثقافة، 1964)، ص 156.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3 / 184.

(3) الأصفهاني، الأغاني، 15 / 333 – 334.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 6 / 324 – 325.

وقد ورد آنفا أن هذه القصيدة أنشدها الشاعر مروان بن أبي حفصة للمهدي، والتي أعجب بها كثيراً، ومنع الشاعر أن يستكمل القصيدة حتى يحضر المال، وكانت قيمتها سبعين ألفاً، بكل بيت ألف درهم حسب بيوت القصيدة السبعين بيتاً.

الفصل الخامس

شعر المدح والتكسب

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شعر المدح والحرب

المبحث الثاني: المدح وعلاقات المجتمع

المبحث الثالث: شعر المدح والزهد



الفصل الخامس

شعــر المــدح والتكســب

يتناول شعر التكسب عن طريق المدح بعض الأشكال والصور التي يتم تحديدها حسب الموقف والحالة التي يراها الشاعر، وأحيانا حسب الطريقة الأكثر جلباً للثراء، ومن أهم صور التكسب في هذا المجال المدح في المعارك والحروب، والذي يتخذ في الغالب صورة التغريض بالأعداء والإشادة بالانتصارات ، وربما يتضمن بعض جوانب شعر الحماسة، ومن الصور الأخرى المدح في مناسبات اجتماعية معينة وأحوال دينية، حتى اشتمل هذا النوع من التكسب أن يقوم الشاعر بمدح شاعر آخر أكثر غنى وثروة.

يقع هذا الفصل في ثلاثة مباحث مبيناً جميع صور التكسب بالمدح، وهي:

المبحث الأول: شعر المدح والحرب

المبحث الثاني: المدح وعلاقات المجتمع

المبحث الثالث: شعر المدح والزهد

المبحث الأول: شعر المدح والحرب

إن المدح بالشعر لأجل التكسب هو أكثر صور التكسب شيوعاً، وقد عرفته العرب وانتشر في المجتمع الإسلامي كجزء من نظام البنية الأساسية للمجتمع العربي الإسلامي. وكان نجاح الشعراء في إتقان المديح وتجويده من أهم أسباب الثراء السريع، وذلك أن الممدوح غالباً ما يكون في رتبة الخلفاء والسلاطين ووزرائهم ومن على شاكلتهم، وفي هذه الحالة يكون العطاء منسجماً مع المكانة السياسية والمظهر الاجتماعي، وفي بعض الحالات الضيقة والمحدودة يكون الثواب على المدح سجية وفطرة حقيقية من الممدوح يترجمها إلى مكافأة سريعة في مجلس الشعر. ومنها أن الأعطيات التي يأخذها الشاعر تكون غير منحصرة في شخص الممدوح وإنما في أشكال مدح على مستوى الدولة والمجتمع، وخصوصاً تلك الأشكال التي تتخذ طبيعة خاصة في الحروب والانتصارات والتي تقوم بوجه عام على دوافع سياسية. وفي هذا المجال تعدى مدح الخلفاء الصفات الشخصية والفضائل الدينية إلى المحاججة والمجادلة عنهم في أشكال وأساليب شعرية، يصوغها شعراء المدح على أساس فقهي أو كلامي أو منطقي، ومن هنا يفهم موقف سيف الدولة الحمداني الذي بسط رعايته وعنايته على الشعر نتيجة إخفاقاته المتلاحقة في المعارك حتى كان الشعر أفضل السياسات المتبعة للدعوة له وانتصاراً معنوياً لجهوده وجهاده، فكان المتنبي أحد فحول الشعراء وكبرائهم ممن عاشوا في حاشية هذا الأمير، ودافعوا عن سلطته وسلطانه، وكما يقول "كلود كاهن": "ليس من قبيل الصدف أن تهدى "الأغاني" إلى سيف الدولة وهي القصائد القديمة التي جمعها أبو الفرج الأصفهاني[1]" .

وتبعاً لذلك، ازدادت أهمية شعر المدح مع اتساع نطاق الدولة وازدياد الأعداء المناوئين للسلطة، وربما تجلى هذا الوضع بصورة واضحة في العهد الأموي،

---

[1] كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص 212.

وتحديداً في عهد عبد الملك بن مروان (65 – 86 هجرية)، وكان الشعراء يمارسون دورهم في إطار مذاهب وفرق وطوائف مختلفة، فكان الأخطل شاعراً لبني أمية، والفرزدق شاعراً للشيعة، وجرير شاعراً للزبيريين، وامتد شعر المدح في العهد العباسي إلى ألوان وصور أخرى تتناسب مع علاقات الأفراد بالسلطة، وموقف الدولة من أعدائها وخصومها السياسيين، وأكثر من ذلك أن الدولة كانت تستنجد ببعض الشعراء كنوع من التعبئة الإعلامية ضد الأعداء.

ومما يروى في هذا الجانب أن السلطان يعقوب بن يوسف الموحدي طلب من صلاح الدين بن أيوب شمس الدين بن منقذ قصيدة مادحة لإثارة الهمم والعزائم ضد الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة عام 587 هجرية. ومما يرويه المقري في كتابه "نفح الطيب" أن السلطان أعطى ابن منقذ أربعين ألفاً على قصيدته التي تقع في أربعين بيتاً، يتقاضى على كل بيت ألفاً. ومن أبيات القصيدة:

سأشْكُرُ بحراً ذا عبــابٍ قطعتــه	إلى بحر جُــودٍ ما لأخراه سَاحِــلُ
إلى مَعْدِنِ التقوى إلى كعبة الندى	إلى من سمتْ بالذكر منه الأوائــلُ
إليــك أميــر المؤمنين ولم تَزلْ	إلى بابك المأمول تزجى الرواحل[1]

كما أن شعر المدح انتصر للمواقف السامية التي تنبع من القيم العربية الأصيلة، وذلك كجزء من الصراعات بين القبائل، والتي تنتهي بنتائج مرضية لطرفي النزاع، وفي هذه الحالة يقوم الشاعر بمدح القبيلة الأخرى المعادية بسبب مبادرتها لفعل الخير وإظهار النيات الحسنة ومراعاة حقوق الجوار، ويروى أن طرفة بن العبد مدح قتادة بن مسلمة الحنفي لأنه أحسن إلى قومه وأعطاهم مالاً ووسع عليهم في سنة مجدبة، وجاء في قصيدته:

---

[1] أحمد بن محمد التلمساني المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى (القاهرة، مطبعة السعادة، 1949)، 1 / 419.

أبلغ قتادةَ غير سائلهِ	منه الثوابَ وعاجل الشَّكمِ
أني حمدتُك للعشيرة إذ	جاءت إليك مُرقَّةَ العظْمِ
ففتحتَ بابكَ للمكارم حـ	ين تواصتِ الأبوابُ بالأزْمِ
وأهنت إذ قدِمُوا التلادَ لهمْ	وكذاك يفعلُ مبتغي النِّعَمِ[1]

إن هذا النوع من المديح يعكس الرضى العام لدى قبيلة في موقفها من قبيلة أخرى، فيتصدى الشاعر الذي يمثل قبيلته للتعبير عن شعورها بذلك الرضى والاحترام من خصومهم، كنتيجة لعفوهم وتحليهم بأخلاق المروءة، وإطلاقهم للأسرى، ومنحهم للمياه والمراعي، وإثبات حسن الجوار، فيأتي الشاعر بالمدح عرفاناً بالجميل في سياق مستوحى من الأمجاد وصنيع الآباء والأجداد في إقراء الضيف وفك الأسير وإعانة المعوز والمحروم. وفي أيام العرب الأولى التي شهدت أفتك المعارك وأعنفها في حرب داحس والغبراء، والتي استمرت أربعين عاماً لأسباب تبدو تافهة. كان الشاعر زهير بن أبي سلمى يمتدح رؤوس القوم مثل هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وهما من خيرة أهل المشورة في التدخل لإخماد نار الحرب وتوزيع الديات للقتلى. وبالرغم من أن موقف الشاعر في هذا المقام لا يخلو من صدق التجربة الإنسانية النبيلة، لكنه من الشعراء المدّاحين المتكسبين بالشعر في مجالات عديدة، وقد اشتهر الشاعر زهير بمدح هرم بن سنان في كل مناسبة، وبعد أن استوفى الثراء في خزائن مترعة بسبب المديح صار يهرب من ممدوحه لكثرة سخائه وإفاضته في العطاء.

ومن الصور والطرق الأخرى المصاحبة للمدح في الحروب ما يعرف بشعر الانتصارات، وهي حالة تبدو أكثر وجاهة للشعراء لتحقيق مكاسب جديدة في أجواء الاحتفال بالنصر والغلبة على العدو. وربما لا يختلف شعر المدح في مناسبة الفوز بالنصر وتحقيق الغلبة عن شعر المدح في مناسبة الهزيمة وتبرير الانتكاسات إلا بقدر ما يمكن وصفه الفرق بين الفرح والفرح المضاد، فالأول هو فرح حقيقي

[1] طرفة بن العبد، الديوان (بيروت، دار الكتب العلمية، 1987)، ص 78 - 79.

من وجهة نظر الشاعر لأنه دحر للأعداء وكسر لشوكتهم، ولا يكلف الشاعر عناء أن يبث مشاعره الجياشة في وصف الواقع والثناء على القائد بالصفات التي يرضاها وتليق به، وأما الثاني وهو الفرح المضاد فيجهد الشاعر في وصفه عبر مشاعر غير صادقة، وإنما يتخذ أسلوب المدح وصورة الفرح كتبرير لنجاة القائد وعدم الظفر به وتفويت الفرصة على الأعداء من أسره والنيل منه، وربما كان المتنبي في علاقته مع سيف الدولة الحمداني كما مرّ آنفاً، يجسد حالة الفرح المضاد لأن سيف الدولة اشتهر بالهزائم أمام خصومه أكثر من تحقيق النصر عليهم. وعلى نحو مماثل، ولكن في صورة الفرح الحقيقي كان أبو تمام ينظم قصيدة طويلة وصلت أبياتها إلى مائة وسبعين بيتاً، يمدح فيها المعتصم في أهم الفتوحات التي شهدها التاريخ الإسلامي.

يروي ابن خلكان في " وفيات الأعيان " أن علي بن يحيى بن مهدي حدّث فقال: كان المنجمون حكموا لما خرج المعتصم إلى الروم بأنه لا يرجع من وجهه، فلما فتح ما فتح وخرب عمورية في شهر رمضان سنة 223 هجرية، وانصرف سالماً، أنشد أبو تمام:

السيفُ أصدقُ أنبــاءً مــن الكتــبِ	في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعبِ
بيض الصفائح لا سود الصحائف في	متونهن جلاء الشــك والرِّيَبِ

وقيل أنه كرر إنشاء هذه القصيدة ثلاثة أيام، فقال له المعتصم: كم تجلو علينا عجوزك ؟ قال: حتى أستوفي حقها يا أمير المؤمنين، فأمر له بمائة وسبعين ألف درهم عن كل بيت منها ألف[1].

ففي هذه الرواية تأكيد على الفرح الحقيقي أو الموقف الصلب من الشاعر للحصول على الثواب، لأن حالة الزهو والشعور بالانتصار، وخلافاً للتوقعات بأن المعتصم لا يرجع من وجهه حسب الرواية، يولد دافعاً قوياً لدى الشاعر للوقوف

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2 / 23.

بباب الممدوح ثلاثة أيام وهو ينشد القصيدة مرة تلو الأخرى، حتى وصفها المعتصم بالعجوز لمرور الأيام عليها وكثرة إنشادها، وقد مرّت قصة مشابهة لأبي تمام عندما قصد خالد بن يزيد بأرمينية، وما برح المكان حتى نال جائزة بعد أخرى.

إن صورة الإلحاح وشدة السؤال في التكسب بالشعر عند أبي تمام تجسد صورة حقيقية غالبة في شعر المدح بأن الشاعر مدفوع بهواجس وميولات خاصة نحو تعظيم الثراء وبلوغ المنى في أسباب الغنى، وهي صورة لحالة الجشع والتكاثر المادي، ولعلها تعزز من وجود الفوارق الطبقية بين فئات المجتمع، وتحرم شرائحه الأخرى من حقهم في توزيع الثروة وضمان الضروريات.

وواضح أن التطور الذي طرأ على شعر المدح في الحروب والصدامات مع الأعداء تجاوز الخطوط العريضة المعروفة في بداية العهد الإسلامي. فقد كانت مشاركة الشعراء للجيوش ضد الأعداء مشاركة فعلية في أرض النزال والمعركة، بل إن بعضهم كان ينشد الأشعار بوصفه قائداً للمعركة، كما حدث مع عبد الله بن رواحة الذي سجل أروع الملاحم القتالية في مؤته، فكان شاعراً متنقلاً في شعره إلى أرض الكرك من بلاد الروم، وقد مزج في معركة مؤتة بين شاعريته وقيادته كنموذج فريد في تاريخ الإسلام. وبدون شك أن الشعر في ميدان المعركة يأخذ دور الحماسة وإثارة الجنـــد نحو الأعداء وبث الشجاعة في نفوسهم، خلافاً لحالة الشعراء الذين يحركون الهمم وروح القتال بناءً على طلب القائد، وطمعاً في الحصول على المال، وتجارة في نظم الشعر لأجل الغنى. ولكن الفروقات بين الحالتين، حالة المجتمع الإسلامي في عصر الصحابة والتابعين، وحالة المجتمع الإسلامي في عهد بني أمية وبني العباس، تبدو للوهلة الأولى كبيرة وعميقة التناقض مع تعاليم الإسلام، لأن توزيع الثروة في الحالة الأولى يوزع حسب معيار الجهد الشخصي والمشاركة في القتال فيأخذ الجند حقهم في المال حسب قاعدة توزيع الغنائم أو الفيء، وأما في الحالة الثانية فهو تبديد للثروة واستحواذ غير مشروع على الغنائم.

وفي سبيل الوصول إلى المعاني الحقيقية للشجاعة وشدة البأس تمكن الشاعر مروان بن أبي حفصة من أخذ جائزة كبيرة من ممدوحه معن بن زائدة، وقد وصفه بقوة شوكته وذوده ودفاعه عن سلطان الخليفة، ولمّا اعترض المنصور على معن بن زائده بعدما دخل عليه في بعض الأيام، وقال له: هيه يا معن، تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زيدت به   شرفاً على شرفٍ بنو شيبان

فقال معن: كلا يا أمير المؤمنين، إنما أعطيته على قوله في هذه القصيدة:

ما زلت يوم الهاشميـــة مُعلناً   بالسيف دون خليفة الرحمنِ
فمـــنعت حوزته وكنت وقاءه   من وقـــع كل مهنَّدٍ وسنانِ

فقال: أحسنت يا معن[1].

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 247.

المبحث الثاني: المدح وعلاقات المجتمع

لقد دأب شعراء التكسب على المشاركة الاجتماعية طلباً للمال، والمشاركة هنا تمثل نوعاً من التواصل والوصول الشخصي لمراكز القوى في المجتمع، وغالباً ما تكون مشاركة الشعراء في مناسبات خاصة للخلفاء والسلاطين أكثر حضوراً وتأثيراً في إضفاء أجواء المرح والسرور من غيرهم. كما يمثل المردود المادي الذي يحققه الشعراء في مثل هذه المناسبات علامات كبيرة لأهمية التودد والملاطفة الشعرية، والذي يستعجل به الخلفاء في صورة مكافآت وجوائز سخية. يقول ابن حمدون النقيب في الرواية التي يرويها لإسحاق بن إبراهيم الموصلي "حضرنا الدار يوم عقد المتوكل لأولاده الثلاثة فدخل مروان بن أبي حفصة فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

بيضاء في وجناتها ورد فكيف لنا بشمه

فسرّ بذلك سروراً شديدا وأمر فنثر عليه بدرة دنانير، وأن تلقط وتطرح في حجره وأمره بالجلوس وعقد له على اليمامة والبحرين، فقال يا أمير المؤمنين، ما رأيت كاليوم ولا أرى أبقاك الله ما دامت السموات والأرض[1]".

والشاعر مروان بن أبي حفصة كما هو معروف من أكثر الشعراء تكسباً في الإسلام، وعلاقته مع بلاط الخلافة وحاشية الخليفة لا يذم عليها في كثير من الأحوال، إلا أن الملاحظ هو انفعال الشاعر وإظهار عاطفته الجياشة التي انسابت على لسانه " ما رأيت كاليوم ولا أرى " يدل على مفاجآت سريعة من الممدوح خلافاً للتوقعات المرجوة من الشاعر، والتي تمثلت بجوائز ومكانة سياسية يحققها الشاعر من الخليفة الذي عقد له على اليمامة والبحرين.

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1 / 411.

وعلى الرغم من أن القيادة السياسية والوصول إلى مراكز السلطة يحتاج إلى أهلية خاصة، والتي تنقص الشاعر الذي يتفنن في التزلف والمديح، ولكنه نادراً ما يمتلك الكفاءة والخبرة الكافية في هذا المجال، إلا أن القصة تنطوي على دلالات عميقة في المجتمع الإسلامي في تلك العهود الغابرة، وهي أن توزيع الثروة والمال وتوزيع الولايات ومقاليد السلطة هما وجهان لصورة واحدة.

وفي مواقف كثيرة مشابهة تمكن الشاعر مروان بن أبي حفصة من الولوج من الباب نفسه في موافقة المديح لنفسية الممدوح والتأثير في عواطفه وأحاسيسه وبالتالي التأثير في سخائه وعطائه وفضله، ومن ذلك ما يروى أنه لما ولدت ابنة جعفر محمداً جاء الشاعر مروان وأنشد قصيدته في أجواء احتفالية يعمها السرور والفرحة، وحصل على جوائز أخرى إضافية، وبطريقة خاصة تعبر عن انفعال وحماس الممدوح، ومن أبيات القصيدة:

لله درّك يـــا عقيلة جعفر	ماذا ولدت من الندى والـــسؤدد
إن الخلافة قد تبين نورها	للناظرين علـــى جبيـــن محمـــد
إني لأعلم انـــه لخليفـــة	إن بيعـــة عُقـــدت وإن لم تعـــقد

فأمر له هارون بثلاثة آلاف دينار، وأمرت زبيدة[1] أن يحشى فوه جوهراً فكانت قيمة عشرة آلاف دينار[2].

ومن مشاركة شعراء المدح في العلاقات الاجتماعية دورهم في الاستحواذ على مواقف السلاطين، وكسب مساندتهم لهم في الزواج، وخصوصاً من الجواري اللاتي يحتفظن بمكانة خاصة في ديوان الخلافة، وواضح أن أطماع بعض شعراء التكسب الذين تربطهم علاقات قوية ومتينة مع مراكز القوة في ديوان الخلافة ليست

---

(1) زبـــيدة هـــي بنـــت جعفر بن أبي جعفر المنصور، وهي أم الأمين محمد بن هارون الرشيد، وزوجها المأمون.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2 / 315.

أطماعاً سهلة، والواقع أنها لا تختلف عن المكاسب المادية الأخرى، لأن الجواري في بلاط الخلافة تتحلى الواحدة منهن بمهارات وملكات جمالية متفوقة، ولعل خصوصية المقدرة والكفاءة والمظهر الجذاب هي إحدى أهم الدوافع التي تقوم عليها أطماع شعراء التكسب للظفر بهن، والتمتع بحظوظ الفرص الأخرى، علاوة على أن الجواري لا يمتلكن الحرية الكافية في بيوت الأسياد ويعاملن كإماء ورقيق ويتاجر بهن كسلع وأثاث ورياش، كل ذلك دفع هؤلاء الشعراء للانتفاع من جميع الفرص والعوائد الاجتماعية الممكنة.

وللشاعر أبي العتاهية الذي عرف بفصاحة أشعاره وسحر بيانه في مجالس ديوان الخلافة قصة مشهورة في هذا الجانب، فيروى أنه استأذن أن يقدم هدية إلى أمير المؤمنين في احتفالاته في النيروز والمهرجان، فأهدى له في أحدهما برنية ضخمة، والبرنية هي قارورة أو إناء من خزف، فيها ثوب ناعم وطِيب قد كتبت على حواشيه بيتين من الشعر:

نفسي بشيء من الدنيا مُعَلَّقــةٌ ... الله والقائم المَهــْديُّ يكفيها

إني لأيأسُ منهـــا ثم يُطمِعُني ... فيها احتقارُك للدنيا وما فيها

وقد عرض بهذين البيتين ليعطيه محبوبته عُتبَةَ جارية الإمام المهدي، فهمَّ بإعطائها له، فجزعت، وقالت: يا أمير المؤمنين، حُرمتي وخدمتي، أتدفعني إلى رجل قبيح المنظر ومتكسب بالشعر ؟ فأعفاها، وقال: املئوا له البرنية مالاً، فقال أبو العتاهية للكتّاب: أمر لي بدنانير، وقالوا ما ندفع إليك ذاك، ولكن إن شئت أعطيناك دراهم إلى أن يُفصح بما أراد، فاختُلف في ذلك حولاً، فقالت عتبة: لو كان عاشقاً كما يزعم لم يكن يختلف منذ حول في التمييز بين الدراهم والدنانير، وقد أعرض عن ذكري صفحاً[1].

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1 / 220.

تكشف القصة عن دلالات مختلفة، فطمع الشاعر أبي العتاهية بالجارية مدفوع بجمالها وعقلها الذي برعت فيه في إبراز الصورة المقابلة للشاعر، وهي دمامة المنظر وقبحه، علاوة على حجتها القوية في تحقير مهنته أو سمعته بالتكسب، إلى حد أن أمير المؤمنين اقتنع بحجتها وصرف النظر عن إلحاقها به، وأما الدلالة الأكثر أهمية أن الجارية صدقت في حجتها ورجحان عقلها بأن الشاعر متكسب وليس بعاشق، لأنه حرص على أخذ الدنانير لأنها من ذهب ورفض الدراهــم لأنها من فضة، واستمر في ذلك عاماً كاملاً.

وفي قصة أخرى قريبة منها في الدلالات والمعاني أن الشاعر نصيب الأصغر مولى المهدي، كان قد نشأ باليمامة فاشتراه المهدي، فلما سمع شعره قال: ما الله بدون نصيب مولى بني أمية، وأعتقه وزوجه أمة وأقطعه ضيعة بالسواد[1]. إبل، ووجه معه رجلاً من الشيعة، وكتب معه إلى عامل اليمن بعشرين ألف دينار. فمدّ نصيب يده في الدنانير ينفقها ويشرب بها ويشتري الجواري، فكتب الشيعي إلى المهدي، فلما دخل عليه أمر بحبسه ثم عفا عنه، ووصله بألفي دينار وأمر له بجارية يقال لها جعفرة من أجمل الرقيق.

والتشابه في موقف المهدي واضح في القصتين، فبالرغم من أنه اقتنع بموقف الجارية وحجتها ضد أبي العتاهية لكنه أكرمه وأفاض عليه بالعطاء كما في القصة الأولى، وكذلك لم يزجر الشاعر نصيب على تفريطه بالأمانة وانتهاب حقوق أهل اليمن بل وصله وأمر له بجارية كما في القصة الثانية. إن إسراف الشاعر نصيب في تناول المحرمات وإضاعته حقوق الآخرين والاعتداء عليها يتناسب إلى حدٍ كبير مع ظروف البيئة المحيطة التي يتغلغل صيته فيها مما دفع المهدي إلى إعتاقه وتزويجه وإقطاعه الأرض والضياع. ومن مواقف شعراء التكسب في هذا المجال أن الشاعر الفرّزدق المشهور دخل على الحجاج بن يوسف فقال له الحجاج:

---

[1] محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 4 / 220.

أتزوجت نصرانية على مائة بعير فقال له عنبسة بن سعيد إنما ذلك ألفا درهم، فقال الحجاج: ليس غير يا أبا كعب أعطه ألفي درهم[1].

فالتاريخ الإسلامي لم يشهد للحجاج بن يوسف مكرمات اجتماعية يحظى بها الرعية ودهماء الناس، ولكن موقفه مع الفرزدق يعكس صورة من الإنعام والتساهل في العطية، والواقع أن قوله " ليس غير يا أبا كعب " لا يكشف حقيقة الكرم أو أدنى صورة من صوره بقدر ما يبرهن على جوانب مهمة من تفكك الدولة وإهدار حقوق الرعية وازدراء أحوالهم والبطش بهم. ولا تختلف حالة الحجاج عن الحالة العامة لمراكز الحكم والسلطة في المجتمع الإسلامي، ويمكن القول بقدر كبير من الالتزام أن حظوة بعض شعراء التكسب لدى الحجاج الذي عرف بصولته وصولجانه وشدة بأسه في معاملة الرعية وتضييق الخناق هو دليل واضح على مدى تغلغل هؤلاء الشعراء في المجتمع الإسلامي، ووصولهم إلى مكانة مرموقة مشوبة بالجاه والسلطان علاوة على الغنى والثراء.

وأما الشاعر أشجع السلمي الذي كان خادماً لدى الفضل بن الربيع فقد أثرت حياته ونال المكاسب المادية الكبيرة بعدما قدمه سيده إلى الرشيد. فقيل أن الفضل بن الربيع أدخل أشجع على الرشيد ووصفه له بأنه أشعر أهل هذا الزمان، وكان مجلسه في قصره الذي بناه، فبادر أشجع يصف قصر الرشيد:

قصـــرٌ عليـــه تحيـــة وســـلامُ	نثرت عليـــه جمالها الأيام
فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتقتْ	للملكِ فيه سلامةٌ وســـلامُ

فسرّ الرشيد بالقصيدة واستحسنها، وهي تقع في عشرة أبيات، فأمر له بعشرين ألف درهم. وكان جعفر بن يحيى البرمكي يجري عليه في كل جمعة مائة دينار[1].

---

[1] أبو عبيدة بن المثنى، كتاب النقائض: نقائض جرير والفرزدق (بغداد، مكتبة المثنى، د. ت.)، 2 / 819 - 820.

فالعلاقات الاجتماعية التي يرتبط فيها شعراء التكسب تنحصر بشكل خاص بمراكز السلطة، والتي تهيئ لهم المكاسب العريضة والحياة المترفة، ولا يخفى أن الانتقال من عيش الكفاف إلى عيش الوفرة والغنى لا يجهد الشاعر في البحث عن قصائد طويلة تمتاز بجزالة الألفاظ وسحر البيان كأشعار المعلقات، وإنما يكفي الشاعر اقتناص الفرصة المناسبة كما في حالة أشجع السلمي، ولو كانت القصيدة في وصف حجارة القصر وزخارفه وراحة الخليفة وسكينته فيه، دون الالتفات إلى حجم القصيدة التي لا تتجاوز عشرة أبيات.

(1) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 1 / 196 - 197.

المبحث الثالث: شعر المدح والزهد

فقد توسع شعراء التكسب في أسباب الحصول على المال وطلب الغنى، وبالرغم من أن ألوان الشعر متفاوتة في الكسب، إلا أن المدح يعد أشد الألوان الشعرية التي تنطوي على تباين في ذاتها، وخلافاً للقاعدة المفترضة بأن المدح يتناول صفات الممدوح من جهة وصفه بالكرم والسماحة والشجاعة وغيره، فإن المدح يتناول جانباً على قدر كبير من الأهمية، وهو وصف الممدوح بالزهد والانصراف عن زخارف الدنيا وزينتها والتقلل من لذائذ الحياة، باعتبار أنها حياة فانية سريعة الزوال، تغرُّ بأهلها وتلهيهم عن الطاعات. وواضح أن الشاعر في هذه الحالة يفقد الالتزام بالقول والسلوك في مواجهة مباشرة مع الممدوح، لأنه يصف ممدوحه باحتقاره للمال بينما الشاعر نفسه يسعى إلى طلب المال، وتناقض الشاعر مع ذاته في هذا الباب أشد وقعاً وإيلاماً لأنه يكشف التصادم بين من يرى الشاعر أنه جدير بالمدح وأهل للثناء بسبب إقلاله وزهده في طلب المال وبين نفسيته المعذبة في الحرص على الارتزاق وطلب الثراء.

ومن الشعراء الذين أتقنوا الشعر في باب الزهد الشاعر أبو العتاهية، وقد أفاض بالمعاني الرقيقة في زهدياته التي اشتهر بها، ولكنه من جهة أخرى استغل هذا اللون من الشعر في تحقيق فرص جديدة للكسب، ومنها أنه مدح الرشيد بانصرافه عن الدنيا وبغضه لها[1]:

الله بغَّضَ عندك الـــ　　　دنيا وبغَّضها إليكا

فاستحق جائزة عليها من الرشيد تصل إلى عشرين ألف درهم، مع أن المقام يدعو للالتزام بتجارة الآخرة وليس الإفراط في تجارة الآخرة، كما أنه مدح بعض أفراد حاشية بلاط الخلافة في الصبر والقناعة فحصل على ألفي درهم[2].

---

(1) أبو العتاهية، الديوان، ص 319.

(2) المصدر نفسه، ص 319.

وفي موقف آخر مع المأمون كان أبو العتاهية يذم الغفلة عن الموت والأجل ويدعو للاستعداد للآخرة، وأنشد للمأمون قصيدته[1]:

كم غافلٍ أودَى بـــه الموتُ	لم يأخذِ الأُهبـَــةَ للفوتِ
من لم تزل نعمتُـــه قَبلــَهُ	زال عن النعمةِ بالموتِ

إن موقف الممدوح ينسجم تماماً مع نفسية الشاعر، فالصـــورة الواضحة بأن الشاعر يذم المال ويسعى إليه، لا تعتبر تناقضاً حسب هذا الموقف، لأن الممدوح في بعض الأحوال لا يوصف بالزهد في سلوكه وفعله إلا فيما يوصف فيه من الشعر، وبذلك تتجلى في نفسية الممدوح مزايا جديدة تضاف إليه بوصفه بالكرم والأنفة وشيم الرجال. ومن هنا يمكن حل لغز التناقض بالنسبة للممدوح من جهة كونه يقدم جائزة سخية لشعرٍ يقال فيه بالزهد، وهو لا يتصف به على الحقيقة ولا ينتسب إليه إلا مجازاً على طريقة المدّاحين.

ولكن استثناء من القاعدة، قد يكون الممدوح موصوفاً بالزهد والتجمل والقناعة على الحقيقة، دون أية مزايا جديدة يضيفها الشاعر إلى نفسية الممدوح أو التأثير في أخلاقه الباطنة والظاهرة، والواقع أنه من النادر جداً الوصول إلى شخصية جديرة بهذا الوصف، وبخاصة في العهد الأموي والعباسي. وفي هذا الجانب يجوز القول أن الإمام العادل عمر بن عبد العزيز يمكن وصفه كنموذج أمثل في هذا المجال. ويروى أن الشاعر كثيِّر عزة مدح عمر بن عبد العزيز بالإعراض عن الترف والالتزام بالعدل بين الرعية والمساواة بين المسلمين، وتعتبر قصيدته من أبرز مدحيات العصر الأموي، وقد قال فيها[2]:

---

(1) المصدر نفسه، ص 156.

(2) كثير عزة عبد الرحمن بن أبي جمعة، الديوان (بيروت، دار الثقافة، 1971 م)، ص 335 – 336.

وقد لبسَتْ لُبـسَ الهَلُـوكِ ثيابَهـا تراءى لك الدنيا بـكفٍّ ومعصَمِ
فأعرضـت عنهـا مشمئزا كأنـما سقـتْكَ مَدُوفاً من سـمامٍ وعلقمِ
فلما أتاك الـملكُ عفـواً ولم يكـن لطـالبِ دنيـا بعـدَه مـن تكلُّمِ
تركت الـذي يفـنى وإن كان مُونقاً وآثرتَ مـا يبقـى برأيٍ مُصمِّـمِ
فما بين شرق الأرض والغرب كلها مُـنادٍ ينادي مـن فصيـح وأعجمِ
يقُـولُ: أمير المؤمنيـن ظلمتنـي بأخـذٍ لدينـارٍ وأخـذٍ لدرهـمِ
ولـو يستطيـعُ المسلمـون لقسَّموا لـك الشَّطر من أعمارهم غير نُدَّمِ

فأجازه عمر بن عبد العزيز بثلاثمائة درهم. إن موقف الممدوح هنا يختلف بصورة أساسية عن المواقف الأخرى، وتتمثل جوانب الاختلاف بشخصية الممدوح ونفسيته المطابقة للوصـف كما تناولتها القصيدة، فإن عمر بن العزيز أجاز الشاعر بمكافأة ضئيلة مع اعتقاده بأن الشاعر كان صادقاً في مقولته ولم يتزلف بتغيير الحقيقة، وقيل أن الشاعر كثير عزة هو الشاعر الوحيد الذي أجازه عمر بن عبد العزيز بمكافأة، والواقع أن شخصية الممدوح في هذا المقام جديرة بالوقوف عليها بشكل أكثر تفصيلا وإسهاباً، لأنها تتعلق بنموذج حي لاقتران العدل بالملك، وقد قيل: "الملك والعدل توأمان كأنما خرجا من بطن واحد". ولكن من وجه آخر لا يمكن تفسير الجائزة بأنها ضئيلة جرياً على عادة بعض الممدوحين الموصوفين بالبخل، وإنما جاءت تأكيداً لموقف الممدوح من تحقير الدنيا وبغض المال وربما كانت على سبيل الصدقة والإحسان بسبب شعور الممدوح بوجود حاجة حقيقية للشاعر، خصوصاً أن الشاعر كثير عزة كان مقلاً في شعر التكسب. وأما ما يعني الممدوح نفسه فهناك شواهد عديدة تدل بوضوح على نفسيته الزاهدة.

يروي صاحب الإحياء أن مسلمة بن عبد الملك دخل على عمر بن عبد العزيز عند موته، فقال: "يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد قبلك، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار، وكان له ثلاثة عشر من الولد، فقال عمر: أقعدوني! فأقعدوه فقال: أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً فإني لم أمنعهم حقاً

لهم ولم أعطهم حقاً لغيرهم! وإنما ولديّ أحد رجلين: إما مطيع لله فالله كافيه، والله يتولى الصالحين، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع[1].

ومن الشواهد التي يرويها ابن الجوزي عن مناقب عمر بن عبد العزيز في الحكم والعدل أن رجلاً نقش على خاتمه عمر بن عبد العزيز، فحبسه عمر خمسة عشر ليلة، ثم خلى سبيله[2]. وسئل أحد الرهبان بعد موت عمر بن عبد العزيز: لِمَ تترحم عليه وهو ليس على دينك، فقال: إني لا أبكي عليه، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ[3].

إن الإشادة بأفعال الممدوح لا تكون إلا بقدر عطائه ونواله، وربما يكون عطاء عمر بن عبد العزيز لا يضاهى ولا يشابهه عطاء جزيل للمحرومين والضعفاء من الرعية وليس للشعراء المداحين، وهو أحد الوجوه التي تفهم من ضآلة الأعطية للشاعر كثير عزة مقارنة بأن الممدوح أكثر عطاءً وأوسع كرماً لأنه خرج من ماله كله ولم يترك موروثا لولده، وقد كان الشعراء أنفسهم يهابون الامتثال والوقوف بين يدي عمر بن عبد العزيز، وكان عمر قبل أن يلي الخلافة قد توعد بعضهم لهجوهم بالباطل ومجونهم، ولذلك قيل أنه " لما ولي الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث، فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما واحملهما إليّ ثم عفى عن عمر بعد أن أمر بنفيه لأنه عاهد الله أن لا يعود ولا يذكر النساء في شعر، وأمر بنفي الأحــوص[4]".

إن علاقة شعر المدح بالزهد تدل على انكباب شعراء التكسب على الدنيا والاشتغال بجمع المال وتحصيله بطريقة مكشوفة وواضحة، فالتباين الشديد بين قول الشاعر وسلوكه في تسويق الزهد كسلعة رائجة يقبلها بعض الممدوحين ويكافئون

---

(1) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، 3 / 248.

(2) عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص 89.

(3) المصدر نفسه، ص 331.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 13 / 150.

عليها بالجوائز والأعطيات السخية يكشف حقيقة الجشع والطمع واستبداد المال والجاه بصاحبه على نحو يغور في أعماقه ووجدانه وثنايا نفسه. ولقد توسع هؤلاء الشعراء في السعي وراء المال والثراء باستخدام ألوان شعرية وطرق جديدة للتكسب ما وسعهم الجهد في ذلك. ومن الطرق المبتكرة لدى بعض شعراء التكسب أن بعضهم كان يمدح البعض الآخر الأكثر ثراء للحصول على المال. وتعتبر عملية إعادة توزيع الأموال من الشعراء الأكثر استحواذاً على الثروة إلى الشعراء الأقل حظاً ضرورية في ضبط التوازن الاجتماعي بين الشعراء أنفسهم في محيط أو دائرة واحدة. وبدون شك أن الشعراء الأثرياء لا يتساهلون في الأعطيات الكبيرة لغيرهم إلا بحسب ما تمليه الظروف والأحوال الشخصية وتسمح به المصلحة الذاتية للشاعر. وقد روى ابن المعتز في طبقاته أخبار الشاعر عوف بن محلّم الخزاعي ما يعزز علاقة التكسب بين الشعراء بعضهم مع بعضٍ، فقال: " وكان الشعراء الأصاغر يقصدونه ويمدحونه فيعطيهم ويصلهم[1]"، وفي أخبار الشاعر دعبل الخزاعي الذي اشتهر بمدحه مسلم بن الوليد الذي كان يجيزه ويغدق عليه بالعطايا[2]، يقول ابن المعتز: " قصد دعبلا شاعرٌ فقال: إني مدحتك، فقال: أو تعرفني ؟ قال: نعم، أنت دعبل، قال: إذن فأنشد، فأنشده:

لقائلٍ قلتُ وقــد قال لي:	أكــرمُ مَنْ تَسألُهُ دِعْبَلُ:
أيطلبُ السائلُ من سائلٍ ؟	فقال لي: السائلُ لا يبخلُ
لبئس مـــا قـــدر في نفسهِ	أن يسألَ الناسَ ولا يُسألُ

قال: فوصله وأكرمه[3].

---

[1] ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 188 – 189.

[2] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، طبعة ثانية (بيروت، دار العلم للملايين، 1969م)، 285/2.

[3] ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 266.

إن مدح الشاعر لشاعر مثله لا يخلو من عناصر المدح الأساسية، وأهما الكرم والجود والسماحة، وقول الشاعر لدعبل "أكرمُ من تسأله" و "السائل لا يبخل" لا تدل بالضرورة على كرم الممدوح بشكل فعلي بقدر ما تدل على التعامل بالأوصاف المحببة لدى الممدوح، والتي غالباً ما يفتقر إليها ويقصر عن الوصول إليه بالسؤال والتسول كرما وجودا، مع أن الشعراء حين يمتدح بعضهم بعضاً يقترون في العطية ولا يعطون إلا القليل. فإن الشاعر أبا تمام أحد أغنياء التكسب بالشعر، والذي سبقت الإشارة إلى إلحاحه في السؤال وحرصه على الظفر بأية أعطية، كان هو أيضاً مترزقاً عند غيره من الشعراء على القليل من المال. يقول الحسن بن وهب: دخل أبو تمام على محمد بن عبد الملك الزيات فأنشده قصيدته التي أولها:

لهان علينا أن تقول وتفعلا

فلما بلغ إلى قوله:

ووالـــلـــه لا آتيــك إلا فريـــضـــةً	وآتي جميـــع العالمين تنفـــلا
وليس امرؤا في الناس كنت سلاحه	عشية يلقى الحادثـــات بأعزلا

فأمر له بخمسة آلاف درهم، وكتب إليه بعد ذلك:

رأيتك سهل البيع سمحاً وإنما	يغالي إذا ما ضن بالشيء بايعه
فأما الذي هانت بضائع بيعه	فيوشك أن تبقى عليه بضـــايعه

فأجابه أبو تمام:

أبا جعفر إن كنت أصبحت تاجراً	أساهل في بيعـــي له من أبايعـــه
فقد كنت قبلـــي شاعراً تاجراً به	تساهل من عادت عليك منافعه[1]

---

[1] ابن خلكان، وفيات الأعيان 2 / 23 – 24.

يتضح من حجة أبي تمام وردّه على ممدوحه أن هناك قضايا مشتركة بين الشعراء الذين يتعاطون المديح لأجل المال بأنهم يقولون الشعر يتاجرون به، ويتساهلون في بيع بضاعتهم، وأنهم مسترزقون على الكثير من المال وعلى القليل. ومن جهة أخرى، فإن التوسع في طلب الثراء باستخدام ألوان شعرية مختلفة، كالمدح في الزهد لغير صاحبه، ومدح الشاعر لشاعر غيره تزلفاً ورياءً، يضم ألوان أخرى في نفس وعاء المديح، ولعل هذا الوعاء يتسع للمزيد من الصور الشعرية، والتي تخلو عادة من المقومات الأساسية للالتزام الشخصي، وتتمحور حول تعظيم الربح والثراء، وربما في بعض الحالات يلجأ الشاعر إلى وصف الممدوح في صورة من العظمة والجلال، وبالتالي تحقير الناس وازدرائهم أمام الصفات العلية للممدوح! وكان موقف عمر بن العلاء أكثر تعاليا وحماسا وقبولاً للشاعر أبي العتاهية الذي امتدحه في قطعة شعرية تكاد تكون من روائع القصائد التي قيلت في وصف العظمة للممدوح، وكأنــه كعبة القاصــدين لنيل الثواب، فيقــول[1]:

إني أمنتُ من الزمان وصرْفه	لَمّا علقْتُ من الأمــير حبالا
لــو يستطيعُ الناسُ من إجلاله	تخذوا له حُرَّ الخــدود نِعالا
إن المــطايا تــشتكيك لأنــها	قطعت إليك سَباسِبــاً ورمالا
فإن وَردْنَ بنا وردنَ خفائــفاً	وإذا صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقالا

ولما سمع عمر بن العلاء هذه القصيدة أعطاه سبعين ألفا، وخلع عليه حتى لا يقدر أن يقوم.

---

[1] المصدر نفسه، 1 / 220 - 221.



الفصل السادس

الاكتساب ومطلق الشعر

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الاكتساب وشعر الهجاء

المبحث الثاني: الاكتساب وشعر الرثاء

المبحث الثالث: الاكتساب بالشعر والفقر



الفصل السادس

الاكتساب ومطلـــق الشعـــر

وخلافاً للاكتساب بشعر المدح فإن بعض الشعراء صادفوا بالهجو مكسباً لهم، ويقوم هذا اللون من الشعر على توجيه التهم والنقائص للآخرين ورميهم بالمفسقات وخوارم المروءة، وعادة ما يكون مجال الهجو أعيان الأشخاص، وذلك من خلال رميهم بالتهم والصفات الخسيسة كالبخل والجبن والخلقة الذميمة ونحو ذلك. كما يرتبط شعر الرثاء وشعر المسألة المتضمنة للحاجة والحرمان بدوافع الاكتساب وتحصيل المال.

يبين هذا الفصل محاور الاكتساب بالهجو والرثاء وإظهار الحاجة من خلال ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الاكتساب وشعر الهجاء

المبحث الثاني: الاكتساب وشعر الرثاء

المبحث الثالث: الاكتساب بالشعر والفقر



المبحث الأول: الاكتساب وشعر الهجاء

إن سلوك بعض الشعراء بهجو غيرهم لا يفسر كظاهرة اجتماعية إلا بقدر ما يحقق من المصالح الشخصية للشعراء أنفسهم، بمعنى أن الشاعر قد يكون من المداحين ولكن يتغير موقفه بالنسبة للممدوح إلى النيل منه والتشهير به بالأوصاف القبيحة تبعاً لدواعي المصلحة، والتي تدور حول جوانب شخصية كما أنها ترتبط بقضايا عامة ومشكلات اجتماعية يواجهها المجتمع ككل. وفي كل الأحوال لا يخرج لون الهجاء عن أطماع الشاعر وأنانيته واستغلال الآخرين للحصول على المال، وعندما سئل الشاعر بشار بن برد عن سبب التكسب بالهجاء، وقد كان مكثراً ومغالياً فيه، قال: " من أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ بالهجاء ليُخاف فيعطى[1]". والواقع أن العصر الذي عاش فيه بشار وهو القرن الثاني الهجري ظهر فيه مداحون يعطون على المدح كما كان بشار يعطى علـــى الهجاء، ولكن قبل هذا القرن أي في القرن الأول الهجري وهو عهد الرسالة والصحابة والتابعين ظهر شعراء هجاءون كالحطيئة والأقيشر الأسدي والحزين الكتاني وهم من المخضرمين في هذا المجال. ولا يخفى أن القرن الذي سبق زمن بشار وهو القرن الثالث الهجري برز فيه ابن الرومي كشاعر موهوب في احتراف الهجاء. وبدون شك أن العصور اللاحقة شهدت ظهور هجاءين كثر، إلا أن مقولة بشار حول أهمية الرهبة في انتزاع المال من أغنياء مسيطرين تمثل حقيقة فساد المجتمع وضياع الحقوق، وقد أيد الشاعر دعبل الخزاعي، وهو من شعراء القرن الثالث الهجري، مقولة بشار في ضرورة إرهاب الناس وتخويفهم، فقال: " إني تأملت ما أقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة[2] ".

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، 3 / 202.

(2) الأصفهاني، الأغاني، 2 / 74.

كما أن هناك شعراء أقل شأنا وبرزوا في شعر التكسب بالهجاء في القرون الثلاثة الأولى مثل فضالة بن شريك وأبو حزابة في القرن الأول الهجري، وعمار بن كبار في القرن الثاني الهجري، وأبو الشمقمق في القرن الثالث الهجري.

يمثل الهجاء صورة شعرية تعكس ما عرفه الناس من أوصاف قبيحة أو أخلاق اجتماعية مخالفة للقيم والعادات وأعراف المجتمع. وهناك مفاهيم اقتصادية يطرحها الهجاءون في أشعارهم كصورة عامة، مثل الهجاء بالبخل والهجاء بالمكاسب الخسيسة وغثاثة المأكل والملبس والبطنة والسرقة، والخوف والضعف والجبن في المعارك، إضافة إلى وجود صور أخرى يستخدمها الهجاءون للطعن في تاريخ الآباء والأجداد، والاعتداء على المحرمات، ولكن يعتبر الهجاء بالبخل من أهم الصور المعروفة في هذا الباب، وذلك لمخالفته ما عرفته العرب من مآثر الكرم والجود الذي قامت عليه في الأصل أشعار المدح.

ومن هنا تعتمد طريقة الاكتساب بالشعر على مستوى الجائزة وحجم العطية، كما تعتمد على توقعات الشاعر وتقديره لطبيعة المكافأة. وفي حالات كثيرة ينتقل الشاعر من أسلوب المدح إلى أسلوب الهجاء بسبب انخفاض قيمة المردود لبضاعة الشعر الذي يروج له في الثناء على الممدوحين وتزكيتهم. ومفهوم البخل عند الشاعر في هذه الحالة هو أعطيات شحيحة لا تتناسب مع توقعات عاليــة في المكاسب والأرباح. ويشير ابن المعتز إلى أن الشاعر ربيعة الرِّقّي مدح العباس بن علي بن العباس، عمّ المهدي وكان بخيلا فبعث إليه بدينارين وكانت توقعاته أن يحصل على ألفين فاغتاظ غيظا شديدا، وأرسل إليه بيتين من الشعر يهجوه فيهما، فشكاه إلى الرشيد، فلما اطلع الرشيد على ذلك أمر للشاعر بثلاثين ألف درهم وقرّبه[1].

ولكن صور البخل الذي يصفه شعراء الهجو يختلف باختلاف الحال والمكان، ويضم صوراً عديدة، كالبخل بالضيافة ومنها صغر القدور والجفان،

---

[1] ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 157 - 158.

وإغلاق الأبواب دون الضيفان، وخفض الأصوات أو كتمانها لئلا يعلم بهم أحد، وإرسال الكلاب تزجر الضيف، ووجود حراس يمنعون الضيفــان من الدخول، وإحضار كميات قليلة من القِرى، وحجب البخيل لنفسه من الدخول على مجالس القوم خوفاً من تكليفه أو الطلب منه.

ومن أشهر شعر الهجاء قول الأخطل يهجو كليباً قوم جرير:

قــومٌ إذا استَنْبَــحَ الأضيافُ كلبَهُمُ،	قالوا لأمِّهِم: بولي على النارِ!
والخبــز كالعَنْبرِ الهِنْــدِيِّ عندهُــمُ	والقمــحُ سبعون إرْدَبًّا بدينارِ!

قال الأصمعي وغيره: البيت الأول من هذين البيتين أهجى بيتٍ قالته العرب، لأنه جمع ضروباً من الهجاء، فنسبهم إلى البخل، لكونهم يطفئون نارهم مخافة الضيفان، وكونهم يبخلون بالحطب فنارهم ضعيفة يطفئها بَولة، وكون تلك البولة بولة عجوز، وهي أقل من بَولة الشابة؛ ووصفهم بامتهان أمِّهم، وذلك للؤمهم، وأن لا خدم لهم[1].

والتعبير في شعر الهجو يتناول تضمينات وأوصاف مأخوذة من الموقف الاجتماعي وعادات الناس. وفي هذا الجانب جاء في هجو البحتري لبعض أهل الشام:

لم يسمعوا بالمكرمات ولم يُنِخْ	في دارهم ضيفٌ سوى إبليس[2]

إن حكم الواقع الذي ينتظم علاقات الأفراد بعضهم مع بعض من شأنه أن يفتح باب الهجاء على نحو كبير كما صرح البحتري، لأن الحكم على أهل الشام في هذه المسألة ناتج بحكم التفاعلات الاجتماعية وخبرة الناس وتجربتهم. ومن جانب آخر تعتبر العادات من الركائز الأساسية التي يقاس عليها ويستدل بها على وصف البخل. وروي أن أعرابيا أكل مع سليمان بن عبد الملك فرأى سليمان في لقمة

---

(1) ابن منظور لسان العرب، لسان العرب، باب الباء، فصل الراء، مادة: ردب، 1 / 416.

(2) البحتري، الديوان، تحقيق حسن كامل الصيرفي (القاهرة، دار المعارف، 1977)، 2 /1144.

الأعرابي شَعرة، فقال له: أنزل الشعرة عن لقمتك، فقال له: أتنظر إلي نظر من يرى الشعرة في لقمتي؛ والله لا أكلت معك. فخرج وقال:

وللموت خيرٌ من ضيافةِ باخل   يُلاحظُ أطراف الأكيل على عَمْدِ

فلم يمنع الأعرابي من هجو الخليفة سليمان وجودُه على مائدته، لأن تصرفه معه مخالف لما استقرت عليه العادة بين الناس، وهو إطلاق حرية الضيف أثناء تناول القِرى وعدم تتبعه في الأكل. ومن أطرف ما قيل في ذكر البخلاء أن محمد بن يحيى بن برمك كان قبيحا في بخله، وكان نسيبه فقيراً وثوبه ممزقاً، وقد أشاروا عليه أن يخيط ثوبه ويستعين بمحمد بن يحيى لأنه من خاصته، فقال: أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها، ولو ملك محمد بيتاً من بغداد إلى النوبة مملوءا إبراً، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه إبرة ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ من دُبُر ما فعل[1].

يتضح أن الطريقة التي يجري عليها وصف البخل وذكر البخلاء لا تخلو من التقريع والذم الذي يخلد صاحبه في البخل مع الزمان، غير أن أسلوب الشعراء يمتاز بإعطاء صورة محفوظة بذاكرة الزمن، وهو من أحد الأسباب التي جعلتهم يتكسبون بالهجو كقوة متحكمة في المجتمع الإسلامي، والتي لا تعلوها إلا سطوة الحاكم. وقد مرَّ في أخبار الهجاءين ما يتعرضون له من المشاق والمصاعب مثل النفي أو الحبس كما حدث مع الحطيئة، وتأديب عمر بن الخطاب له وحبسه حتى تاب ورجع عن هجاء الناس.

ولما كان التكسب بالشعر لا يلزم صاحبه بالمدح أو الهجاء إلا بقدر المصلحة الذاتية، والمنفعة المتحققة من ذلك، فلا عجب أن الشاعر يتقلب بين المدح مرة وبين الهجاء مرة أخرى تبعاً لطبيعة العلاقة بينه وبين الشخص نفسه.

---

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، 3 / 314.

وللشاعر مسلم بن الوليد المعروف بصريع الغواني حكاية مشهورة بهذا الجانب من الشعر الهجائي مع يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، وذلك أنه مدحه بقصيدة طويلة، أولها:

أجْرِرْتُ حبل خليعٍ في الصبا غزلِ وشمَّرت همَمُ العذَّالِ في عذلي

فجاء به إلى الرشيد وأدخله عليه فأنشده شعره فيه، فأمر الرشيد له بمائتي ألف درهم، وهي من القصائد الجيدة التي قيلت في يزيد وأبياتها تسع وسبعون بيتاً. ولكن يزيد الممدوح لم يبعث له إلا بمائة وتسعين ألف درهم، وقال: لا تكون عطيتي لك بمثل عطية أمير المؤمنين، قال مسلم: وأقطعني إقطاعات تبلغ مائتي ألف درهم، ثم أفضت الأمور بعد ذلك إلى أن أغضبني، فهجوته، فشكاني إلى الرشيد، فدعاني وقال: أتبيعني عِرض يزيد ؟ قلت: نعم، قال: بكم ؟ قلت: برغيف. فغضب حتى خفته على نفسي، وقال: قد كان رأيي أن أشتريه منك بمال جسيم، ولست أفعل ولا كرامة، وأنا برئ من أبي، والله ووالله، إن بلغني أنك هجوته لأنزعنَّ لسانك من بين فكيّك، قال: فأمسكت عنـــه بعد ذلك ولم أذكره[1].

وعلى النقيض من هذه الصورة فإن الهجاء بوضعه العام في العهدين الأموي والعباسي كان لمصلحة الممدوح، وخصوصاً الدفاع عن الخلفاء وسلاطينهم ضد أعدائهم وخصومهم السياسيين مثل هجاء الأخطل للأنصار[2] تزلفاً إلى بني أمية وهجاؤه للزبيريين والخوارج، كما أن الشاعر مروان بن أبي حفصة يعد من أهم الشعراء اللذين اشتهروا بالدفاع عن الخلفاء وأعوان السلطة.

ومن الصور الأخرى للهجاء ما كان يقوم به بعضهم بهجاء بعض، وهي صورة مرادفة لحالة المدح، حيث كان الشاعر يقوم بمدح شاعر آخر، والجامع بين

---

(1) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ص 141 – 142.

(2) الأخطـــل، الديوان، شرح محمد مهدي ناصر الدين، طبعة أولى (بيروت، دار الكتب العلمية، 1986)، 2 / 483 – 484.

الصورتين؛ صورة المدح وصورة الهجاء، هو التكسب. فالشاعر يقدم بضاعته بالصورة التي يراها مناسبة، فيتكسب بمدح الشخص مرة وهجوه مرة أخرى. وكذلك يمدح الشاعر شاعراً مرة، ويهجوه مرة أخرى، وكل ذلك لا يعني الشاعر بشيء من الالتزام سوى تعظيم المنافع والأرباح. ومثلما مرّ آنفاً مدح الشعراء لبعضهم البعض، فإن أبا الشمقمق كان يهجو حسب الصورة الثانية فحول الشعراء فيتكسب، ويروى أنه طلب من سلم الخاسر أن يهب له شيئا فلم يفعل، فقال فيه أبياتاً في قصيدة أولها:

يا أم سلْمٍ هداك   هداك الله زورينا

فأعطاه سلم خمسة دنانير وقال له: " أن تُعفيني من استزارتكَ أمّي[1]! ".

كما أن بشار بن البرد كان يعطي أبا الشمقمق في كل سنة مائتي درهم، فأتاه أبو الشمقمق ذات مرّة فقال له: هلّم الجزية يا أبا معاذ، فقال بشار: ويحك! أجزية هي؟ قال: هو ما تسمع، وهدّده بأن يذيع في الصبيان هجاء خبيثا كان صنعه فيه وأسمعه بعضه، فوثب بشار فأمسك فاه ثم دفع إليه مائتي درهم[2].

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، 19 / 231.

(2) الأصفهاني، الأغاني، 3 / 188.

المبحث الثاني: الاكتساب وشعر الرثاء

إن شعر الرثاء يجسد العلاقة المتينة بين الشاعر وممدوحه، وبدون شك أن هذا اللون من الشعر يرتبط بحالة وجدانية نبيلة، يبث فيها الشاعر أشجانه وأحزانه، إقراراً منه بفوات النعمة والمنة والخير العميم الذي كان ينعم به في حياة الممدوح. ولا يبدو أن الرثاء طريقة في الاكتساب كالطرق الأخرى لأن انتهاء حياة الممدوح تعني بالنسبة للشاعر عهداً جديداً من انقطاع الرزق وزوال بركة العيش. وقد عبر عن هذا المعنى مسلم بن الوليد في قوله:

يا حسرتا يا أخي مَنْ ذا أُؤملُه   للدهر بَعْدك في عسْري وإيساري[1]؟

ومن جهة أخرى لا يكون شعر الرثاء التزاماً من الشاعر لمصدر الخير الذي اعتمد عليه من كل الوجوه، لأن بعض الشعراء احترفوا التكسب بالهجاء، أو مارسوا هذا اللون من الشعر كطريقة مكملة وموازية للمدح، فإذا كان الرثاء يمثل جانباً من التعبير الحي والعاطفة الصادقة من الشاعر لممدوحه، فإنه لا يجوز أن تتضمن صورة الرثاء علاقة الشاعر بمن كان هدفاً لتخويفه وهجوه. ولذلك ينحصر الرثاء في التعبير عن حالة واحدة من طرق الاكتساب وهي طريقة المدح، ففي هذه الطريقة يجد الشاعر مقومات أساسية للرثاء مستلهماً في ذلك الفضائل العليا للممدوح، كالبر والصلة والسماحة والكرم، والتي تمثل بمجموعها منظومة متكاملة في معنى الأخلاق والمكارم ومحاسن العادات. وبدون شك أن فضيلة الجود هي إحدى أهم الأسباب التي دفعت الشعراء للتكسب، ومن هنا تمحورت خطاباتهم الشعرية حول إبراز هذه الفضيلة باعتبارها صفة راقية في الإنسان يستحق عليها مدحاً في حياته ورثاءً بعد موته.

---

[1] مسلم بن الوليد، الديوان، تحقيق سامي الدهان (القاهرة، دار المعارف، د. ت.) ، ص 229.

إن حالة معن بن زائدة الشيباني تعد نموذجاً فعلياً للجود والسماحة، وقد اعتمد بعض شعراء التكسب على هذا النموذج لإبراز حقيقة الجود كمعنى أساسي من المعاني الكبيرة في الحياة، وقد تمثل الشاعر الحسين بن مطير في مرثيته هذا المعنى واصفاً معن بن زائدة بالحالة النادرة، والجواد الذي عز وجوده في حياة الناس، كما عز في سيرة الأجواد الميسورين، فيقول:

أيا قبر معــن أنــت اولُ حفــرةٍ   من الأرض خُطَّت للسماحة مضجعا
أيا قبر معن كيف واريــت جوده   وقد كان منــه البرُّ والبحــر مُتْرَعا
بلى قد وسعت الجود والجودُ ميتٌ   ولو كان حياً ضقت حتى تصدَّعا[1]

ولكن ربما يصادف بعض الشعراء بابا في التكسب من خلال الرثاء، لأن الرثاء على الميت لا يخص الشاعر بقدر ما يخص أناسا مشهورين من أعيان المجتمع وأئمته، ولا تعتبر مصادفة الشاعر للحصول على المال والثروة في هذه المناسبات من الأمور الشاقة، وخصوصاً إذا كانت تلك المناسبات من المواقف الجامعة للعديد من الأشراف ورؤوس القوم. ومثلما يقوم الشاعر بنظم الرثاء في ممدوحه، تعبيراً عن الوفاء والامتنان، فإن الفرصة لا تفوت هؤلاء الأشراف في محافلهم الجامعة بإبراز صورة الكرم والجود إحياء للمناسبة نفسها.

وقد ورد في نموذج معن بن زائدة الذي رثاه الشعراء بأحسن المراثي ما يؤكد تلك الحقيقة، فمن القصائد التي قيلت في معن بعد مقتله قصيدة مروان بن أبي حفصة، وأولها:

مضى لسبيله معن، وأبقى   مكارم لن تبيد ولن تُنالا

وهي قصيدة طويلة من أفخر الشعر وأحسنه. وفي غمرة الاحتفال بهذه المناسبة، يروي ابن المعتز في "طبقات الشعراء " أن مروان بن أبي حفصة دخل

---

[1] الأصفهاني، الأغاني، 15 / 336.

على جعفر البرمكي، فقال له: ويحك، أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة، فقال: بل أنشدك مديحي فيك، فقال جعفر: أنشدني مرثيتك في معن، فأنشأ يقول:

وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرته عيالا

حتى فرغ من القصيدة، وجعل جعفر يرسل دموعه على خديه، فلما فرغ قال له جعفر: هل أثابك على هذه المرثية أحد من ولده وأهله شيئاً ؟ قال: لا، قال جعفر: فلو كان معن حياً ثم سمعها منك كم كان يثيبك عليها ؟ قال: أصلح الله الوزير، أربعمائة دينار، قال جعفر: فإنا نظن أنه كان لا يرضى لك بذلك، فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك، فقال مروان يذكر جعفراً وما سمح به عن معن:

نفحت مكافئاً عـــن قبر معن لنا مــمّا تجودُ به سِجــالا
فعجلت العطيةَ يا ابن يحيى لنـــادِيه ولم تُرد المطـــالا
فكافأ عن صدى معن جوادٌ بأجودِ راحة بذَلَ النـــوالا
بنى لك خالد وأبـــوك يحيى بنـــاءً في المكارم لن ينالا
كأن البرمكي بكـــل مـــالٍ تجود به يداه يفيـــد مـــالا

ثم قبض المال وانصرف[1].

توضح هذه المناسبة بعض الدلالات والمعاني في سلوك شعراء التكسب. فإن الحزن والإشفاق على الممدوح الذي قبض وقضى نحبه، وقامت لأجله المراثي التي يصدح بها الشعراء حزناً وتفجعاً وسلواناً لا يمكن تفسيره خارج إطار التكسب، لأن الرثاء في شعر المراثي ليس لذات الممدوح وإنما ليده الطولى في العطاء وإعانة الشعراء على إشباع رغباتهم وحاجاتهم. وفي الحالات التي تحول فيها بعض الشعراء من المدح إلى الهجاء لممدوحيهم أصلاً، لا يدخل فيها المشاركة في الرثاء

---

[1] ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص 45 – 46. ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/ 249 – 252.

بسبب افتقاد العنصر الأساسي، وهو استمرارية التكسب وتحقيق النوال. ومن هنا يبرهن موقف مروان بن أبي حفصة الذي طلب فيه أن يمدح جعفر البرمكي في مناسبة رثاء معن على أن الشاعر لا يلتفت إلى الجوانب الإنسانية إذا تعارضت مع رغبته في الحصول على المال وتعظيم الربح. ولكنه مع ذلك أنشد مرثيته في معن وقبض عليها مبلغاً كبيراً من المال، ولما كان استحقاقه للمكافأة على الرثاء تعبيراً عن الكرم الذي اشتهر به معن صاحب المناسبة، وخلافاً لتوقعات الشاعر في حجم الأعطية، قام مروان بنظم قصيدة أخرى في مدح جعفر البرمكي عرفاناً وامتناناً له على العطاء.

إن العاطفة الصادقة في شعر الرثاء، لا تخلو في بعض الأحيان من المراوغة والمخادعة التي يتكلفها الشاعر، كما فعل مروان في قصيدته التي تعد من أروع المراثي وأبدعها، ولكنه انقلب من عاطفة الحزن واللوعة إلى طبيعة الجشع والإفراط في حب المال. وعلى نحو مماثل كان الحطيئة يقف على قبر علقمة بن علاثة ليرثيه في موقف مفاجئ بعدما قصده ليمدحه، وإمعاناً في الطمع والمغالاة حصل على مكافأة كبيرة من ولد علقمة وهي مائة ناقة يتبعها مائة من أولادها كما مرّ آنفاً.

إن الحالات النادرة في مواقف شعراء التكسب مع الممدوحين من خلال شعر المراثي لا تعني عدم وجود قاعدة تقوم على العاطفة الصادقة بقدر ما تعني وجود فجوة في هذه القاعدة. لأن الالتزام بموقف الثناء والصيت الجميل والذكر الحسن يعزز من مكانة الشعراء وتواصلهم مع المجتمع على نحو أفضل، وخصوصاً الملأ والأشراف والرؤوس في المجتمع وليس الأراذل والتحوت. والتواصل في هذا الجانب صلة تقدر بقدرها، وقد وصف الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة حقيقة التواصل والصلة في مرثيته التي قالها في صاحب الفضل عليه وهو الملك المؤيد صاحب حماه، ومما قاله ابن نباته في مرثيته:

ما للنّدى لا يلبي صوت داعيهِ أظنُّ أن ابن شادٍ قـــام ناعيه
ما للرجاء قد اشتدت مذاهبـــهُ ما للزمان قد اسودّت نواحيه[1]

وكان الملك المؤيد قد رتب لابن نباته كل سنة ستمائة درهم، وهو مقيم بدمشق، غير ما يتحفه به من العطايا.

---

(1) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 1 / 184.

المبحث الثالث: الاكتساب بالشعر والفقر

ومن الصور الأخرى التي تفنن فيها الشعراء ورسموها في أشعارهم هي صورة الحرمان وطلب العون بدافع الحاجة والفقر. وتمثل هذه الصورة حقيقة الكداية والمسألة التي انتشرت في المجتمع الإسلامي بسبب الظلم والتفاوت الاجتماعي، بين المترفين الذين يعيشون حياة الترفه وينعمون باللذائذ وبين الضعفاء الذين يواجهون البؤس والحرمان. ولا يخفى أن طلب الحاجة والمسألة من خلال صياغة الشعر ونظمه ينطوي على عناصر أساسية موجودة في شعر التكسب بوجه عام. فإن الشاعر الذي يظهر حاجته ويكشف حالة الحرمان والشقاء لا يفوته أن يمزج مسألته بالمدح والثناء وذلك من خلال صورة محببة للممدوح كالجود والكرم ومكارم الأخلاق، إلى جانب أن الشاعر لا يقصد في غرضه إلا الأشخاص الذين اشتهروا بالعطاء وبذل المال استجابة للشعراء وتلبية لحاجاتهم ورغباتهم.

ومما يذكر في هذا الباب أن معن بن زائدة كان عاملاً على العراقيين بالبصرة فحضر ببابه شاعر ولم يتهيأ له الدخول على معن، ولكن بعدما علم الشاعر أن معن دخل بستانه الذي يشقه نهر صغير جاء بخشبة وكتب عليها:

أيا جود معن ناج معناً بحاجتي　　　فما لي إلى معن سواك شفيعُ

وبعد أن ألقى هذه الخشبة في الماء تناولها معن على الطرف الآخر من البستان، فدعا به وأمر له بعشر بدر[1]، ثم وضع الخشبة تحت البساط، وفي اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع إليه مائة ألف درهم، فلما أخذها الشاعر خاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج، فلما كان في اليوم الثالث قرأ ما

---

[1] محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، 1 / 184.

فيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد، فقال معن: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيتي درهم ولا دينار[1].

إن الصورة الفنية التي رسمها الشاعر في هذا البيت من الشعر وهو يتشفع بالجود عند صاحبه طلباً للحاجة معتبراً مناجاة الجود للجواد طريقته الوحيدة للوصول إلى حاجته، يقابلها صورة موازية من الممدوح وهو يهتز طرباً لهذا البيت متأثرا بأسلوب العرض وطريقة المسألة التي اختلجت أعماق وجدانه وتخللت ثنايا نفسه، مما دفعه أن يدر بالعطاء يوماً بعد يوم، وحتى لو خرج من ماله كله.

فالصورة الفنية المحببة لدى النفس تعد من أهم الأدوات المساعدة في التكسب، وقد كانت الأشعار الغريبة في المجتمع الإسلامي تمثل أسلوباً واضحاً في الكداية مع ما يرافق هذه الصورة من حركات وأحوال أخرى في الشعبذة والسحر والطلسمات. والواقع أنها صورة لا تنفك عن ملازمة العادات وتقاليد المجتمع ومدى تذوقه للفنون الشعرية والإحساس والتأثر بها. وفي سبيل إبراز أهمية التذوق الجمالي للشعر ودوره في إثارة العاطفة الإنسانية لدى الناس قام أحد الشعراء بمساعدة أحد السائلين، وكان أعمى يستجدي الناس لفقدانه بصره، وقد علق على صدره لوحاً كتب عليه " أنا أعمى، ساعدوني "، فجاء هذا الشاعر بعبارة أخرى عندما وجد الناس يمرون بالأعمى ولا يساعدونه، فاستبدل عبارته بعبارة الأعمى التي كتب فيها " جاء الربيع ولكنني لا أراه "، فانهالت عليه الصدقات من كل حدب وصوب.

فالتكسب في حقيقته علم وفن، ولعل الشعراء من أكثر الناس معرفة بمداخله ومخارجه، فهم يملكون البيان العذب والسحر الجميل، ويستحوذون على أنفس الناس وخصوصاً الممدوحين بسبب ما يبرعون به في تقديم أشعارهم بصور فنية تميل إليها الطباع وتهواها الأفئدة، وربما كان الشعراء أقرب إلى مراكز السلطة في المجتمع كبيئة اجتماعية قادرة على بذل المال والإنعام على الشعراء. وبدون شك

---

[1] أبو حامد الغزالي، الإحياء، 3 / 263 - 264.

أن الشعراء يستفيدون من هذا التواصل في عسرهم ويسرهم، ومنشطهم ومكرههم، وتكون إعانتهم في حالات الإملاق والحرمان أقرب وأنفع من هذا الوجه، فيذكر أن أبا الملاوي الشاعر (603 – 656 هجرية) الذي كان يمدح الخلفاء والملوك وكان في خدمة السلطان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد أصابته نوائب الدهر وذاق طعم الحرمان وشظف الحياة، وعندما رآه السلطان بدر الدين في بعض الأيام على هذه الحال، وهو في صحراء مع برذون له مريض أو ضعيف أمر له بخمسين ديناراً وخمسين مكوكاً من الشعير، وقال له: هذه الدنانير لك، وهذا الشعير لبرذونك[1].

ومن جهة أخرى لجأ بعض الشعراء إلى التعبير عن حالة الفقر والحرمان بالشعر المتظلم من سياسة الدولة في مجال دفع الضرائب وازدياد مخصصات الجباية، وهذا الشعر وإن كان من قبيل شعر الهجاء أو على شاكلته، فإنه يكشف عن حاجة الشاعر الفعلية للمال ورفع المعاناة عنه، وقد أشار الشاعر مسلم بن عبد إلى بعض أشكال ظلم الدولة للرعية عندما جاءه العريف وهو أحد الجباة، ليقتطع ما يستحقه من جباية وضريبة على إبلـــه، فقال الشاعر مسلم ينعى حظه ويبث ألمه من خلال أبيات شعرية شاكية حزينة[2]:

بكت إبلي وحُقَّ لها البكـــاءُ	وفرَّقها المظـــالمُ والعـــداءُ
إذا ذكر العريفُ لها اقشعرَّت	ومَسَّ جلـــودها منه انزواءُ
تظل وبعضها يبـــكي لبعضٍ	بكـــاءُ التُّركِ قسَّمها السِّباءُ

فالأموال التي يمتلكها الشاعر، وهي الإبل تحزن لحزنه وتبكي لبكائه، لأنها حسب تعبير الشاعر تواجه سياسة ظالمة في توزيع الثروات وفرض الضرائب، وكأنما هي من السبايا التي يظفر بها الجند من خصومهم وأعدائهم. إن تقسيم

---

(1) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ص 143.

(2) حـــاتم صالح الضامن، قصائد نادرة من منتهى الطلب في أشعار العرب، طبعة أولى (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1983)، ص 37.

المجتمع إلى فئات غنية وأخرى محرومة أدى إلى تحريض الرعية، ومنهم الشعراء للتعبير عن احتجاجهم ورفضهم للظلم والقهر وانتهاب حقوقهم من قبل المتنفذين في الحكم، وقد اعتبر بعضهم أن هذه الحالة من أهم الأسباب لظهور فقراء ومعدمون في المجتمع، ومن ذلك ما قاله الإمام الشافعي[1]:

تموتُ الأسدُ في الغابات جُوعاً ولحم الضأنِ تأكلهُ الكلابُ
وعبــدٌ قد ينــامُ على حريــرٍ وذو نَســبٍ مفارشُه الترابُ

وتبدو هذه الصورة متوافقة تماماً مع نشوء الصعلكة وازدياد نشاط شعراء التصعلك، فقد سبقت الإشارة إلى أن القرن السادس الهجري كان يشهد حركة قوية لمذهب الصعالكة كنتيجة طبيعية للاستبداد الاجتماعي وحرمانهم من حقوقهم في المجتمع. ومن قبل، وبسبب خطورة منحى هذا المذهب، قام الرسول صلى الله عليه وسلم بأخذ الميثاق عليهم، ووعدهم حسنا ومنحهم مزايا اجتماعية " بأنهم إن أسلموا وأصلحوا فعبدهم حر ومولاهم محمد.. وما كان لهم من دَيْن في الناس رُدَّ إليهم، ولا ظلم عليهم ولا عدوان[2] ".

وبصورة عامة لم تتسع دائرة التكسب بالشعر بسبب الفقــر قياساً على الألوان الأخرى، كالمدح أو الهجاء، لأن الإحساس بالظلم يدفع صاحبه إلى الانتقام والتمرد والعصيان، وكما فعل الصعاليك، يكون الفقير المحتاج أشد شراسة لإثبات شجاعته وإعادة حقوقه الاجتماعية، أو أن بعض الشعراء يعارض ظاهرة الفوارق الطبقية في سياق إنساني دون الحاجة إلى التكسب وأخذ الأموال، وأكثر من ذلك كله فإن بعض الشعراء يقنع بالاكتفاء بالقليل من المعاش ويزهد في الكسب، أو أنهم

---

(1) الشافعي، الديوان، ص 50.

(2) طبقات ابن سعد، 1 / 278.

يتمثلون التجمل بالطلب احتقاراً للدنيـــا، وأن الأرزاق والغنى مقادير من الله تعالى.
وفي هذا الجانـــب جاء في شعر النابغة الذبياني[1]:

ولستُ أرى السعـــادةَ جمعَ مالٍ ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ
وتقــوى الله خير الزاد ذُخْــراً وعنـــد الله للأتقى مزيدُ

وفي أبيات أخرى قالها كعب بن زهير:

أعلم أني متى ما يأتنـــي قدري فليـــس يحبسه شـــح ولا شفـــق
والمرء والمـــال ينمي ثم يذهبه مـــر الـــدهور ويفنيـــه فينسحق
فلا تخافي علينا الفقر وانتظري فضل الذي بالغنى من عنده نثق
إن يفن مـــا عنـــدنا فالله يرزقنا ومن سوانـــا ولسنا نحن نرتزق

فهذه القصيدة توضح حقائق ثابتة في سنن الحياة وهي سنة التداول، وتبرز حقيقة التداول كسنة أزلية تضبط علاقات الناس بعضهم مع بعض، وهي تخالف فكرة الفقر والغنى كدوائر اجتماعية جامدة وعاجزة عن الحركة، وإنما يصور الشاعر كعب أن الفقر والغنى دولة بين الناس، وليس الفقر دولة بين الفقراء، والغنى دولة بين الأغنياء، كما أنها من الحقائق الثابتة التي تجري على الأفراد والمجتمعات على حد سواء.

ولكن لا تخلو محاولات بعض الشعراء في هذا الصدد من وصف الزهد وفضل القناعة كمحاولات أخيرة في الحياة، وذلك إظهارا للتوبة ورجوعاً إلى الله تعالى، ليس من جهة الإنابة الخالصة وإنما انقياداً للواقع والوصول إلى سن الشيخوخة بعد مسيرة شعرية حافلة بالمدائح والجوائز والتزلف في مجالس الخلفاء.

---

[1] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي ن 1 / 687.



الخاتمة

فقد اتضح أن التكسب بالشعر كان يقوم بدور محوري في علاقات الدولة وأنشطتها الاجتماعية، ويمثل هذا الدور صورة لحياة الترفه والبذخ والإفراط في لذائذ ومتع الحياة. كما أن شعراء التكسب برعوا في تحقيق مكاسب اجتماعية وسياسية إلى جانب الثراء الفاحش والسيطرة على رؤوس أموال كبيرة من ثروات وموارد المجتمع. وواضح أن دور الشعراء في مجال التكسب ينحصر بأغراض فردية لا تحقق أدنى منفعة على مستوى المصلحة الجماعية. وعلى نحو مختلف يعزز هذا النمط من الشعر الموقف السياسي والاجتماعي باتجاه المزيد من التفكك والفوضى، وتقويض دعائم الحكم وتفويت الفرص الحقيقية للنهوض والشهود الحضاري. كما أن العديد من شعراء التكسب كانوا عوناً للحكام الظلمة يزينون لهم أفعالهم ولهوهم، وباستثناء بعض الشعراء في هذا المجال الذين تعاطوا التكسب فيه دون قصد فعلي، أو إرادة الغنى المفرط، أو أنهم أبدعوا في مديح صادق، كالشاعر الذي حصل عل بردة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنهم بوجه عام احترفوا الشعر كنشاط اقتصادي وتجارة واسعة النطاق بدون تحقيق منافع أو صور إنتاج حقيقية، مما يعني أهمية التمييز بين شعراء السلاطين وسلاطين الشعراء، فإن هناك شعراء مبدعون، قديماً وحديثاً، وربما تكون إنجازات أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وعلي الجارم وأحمد محرم وغيرهم بنفس المستوى الذي وصل إليه شعراء مخضرمون كالمتنبي وأبي تمام[1]، كما أن الشعر في حد ذاته ملكة إبداعية لدى الشاعر، وقد أفرط بعضهم في الثناء والتمجيد لقول الشعر كما قال العقاد:

والشعر في نفس الرحمن مقتبس … والشاعر الفذ بين الناس رحمان !!

---

[1] محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص 98.

وإن كان هذا الوصف فيه تفريط مردود على صاحبه[1]، فإنه يبرهن على مكانة الشعر وفقا لصورته الإبداعية المشرقة، ويؤكد الدور الأكثر أهمية، والذي يقوم به سلاطين الشعراء دفاعاً عن حمى دينهم وأمتهم والتزاماً بالسلوك والمبادئ السامية.

(1) المصدر نفسه، ص 103.

المراجع

1 – ابن الأثير، عز الدين. **أسد الغابة في معرفة الصحابة**. تحقيق محمد البنا وآخرون، دار الشعب.

2 – الأخطل، غياث بن غوث. **الديوان**. شرح محمد مهدي ناصر الدين. الطبعة الأولى. بيروت، دار الكتب العلمية، 1986.

3 – الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. **كتاب الأغاني**. بيروت، دار الثقافة، 1983.

4 – الأعشى، ميمون بن قيس. **الديوان**. شرح محمد حسين. الطبعة الأولى. القاهرة، مكتبة الآداب، 1950.

5 – بابتي، عزيزة فوال. **معجم الشعراء المخضرمين والأمويين**. الطبعة الأولى. بيروت، دار صادر، 1998.

6 – البحتري، الوليد بن عبيد الطائي. **الديوان**. تحقيق حسن كامل الصيرفي. القاهرة، دار المعارف، 1977.

7 – البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**. تحقيق مصطفى ديب البغا. الطبعة الثالثة. بيروت، دار الفكر، 1978.

8 – البستاني، بطرس. **أدباء العرب**. الطبعة الأولى. بيروت، دار المكشوف، 1934.

9 – بلاشير. **تاريخ الأدب العربي**. ترجمة إبراهيم الكيلاني. دمشق، 1956.

10 – البهوتي، منصور بن يونس. **كشاف القناع عن متن الإقناع**. بيروت، عالم الكتب، 1983.

11 – ابن تغري بردى، أبو المحاسن يوسف. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. الطبعة الأولى. القاهرة، دار الكتب المصرية، 1956.

12 – التنوخي، المحسن بن علي. **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**. تحقيق عبود الشالجي. بيروت، 1973.

13 – الجاحظ، عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة، مكتبة الخانجي، 1968.
14 – الجمحي، محمد بن عبد السلام. **طبقات فحول الشعراء**. شرحه محمود شاكر. القاهرة، مطبعة المدني، د. ت.
15 – الجندي، درويش. ظاهرة **التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده**. الطبعة الأولى. القاهرة، دار نهضة منصور، 1970.
16 – ابن الجوزي، عبد الرحمن بن محمد بن علي. **سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز**.
17 – ـــــــــــ، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. الطبعة الأولى. حيدر آباد الدكن، مطبعة دار المعارف العثمانية، 1360 هجرية.
18 – الحطيئة، جرول بن أوس. **الديوان**. شرح أبي الحسن السكري. القاهرة، مطبعة التقدم، د. ت.
19 – ابن أبي حفصة، مروان. **شعر مروان بن أبي حفصة**. تحقيق حسين عطوان. الطبعة الثالثة. القاهرة، دار المعارف، 1982.
20 – حماد، نزيه. **معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء**. سلسلة المعاجم والأدلة والكشافات، رقم: 5. الطبعة الأولى. فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993.
21 – الحوراني، ياسر عبد الكريم. **اللغة والاقتصاد: دراسة في لسان العرب**.
22 – الخطيب البغدادي، أحمد بن علي. **تاريخ بغداد**. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا. الطبعة الأولى. بيروت، دار الكتب العلمية، 1997.
23 – ابن خلكان، أحمد بن محمد. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق إحسان عباس. بيروت، دار صادر، د. ت.
24 – الدار قطني، علي بن عمر. **سنن الدار قطني**. القاهرة، دار المحاسن، د. ت.
25 – ديك الجن، عبد السلام بن رغبان. **الديوان**. تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري. بيروت، دار الثقافة، 1964.

26 – ابن رشيق، أبو علي الحسن. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**. تحقيق محي الدين عبد الحميد. الطبعة الأولى. القاهرة، مطبعة حجازي، 1953.

27 – الزبيدي، أحمد. **مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح**. تحقيق إبراهيم بركة. الطبعة الرابعة. بيروت، دار النفائس، 1990.

28 – الزركلي، خير الدين. **الأعلام**. الطبعة الثانية. بيروت، دار العلم للملايين، 1984.

29 – ابن سعد، محمد. **كتاب الطبقات الكبير**. بيروت، دار صادر، د. ت.

30 – الشافعي، محمد بن إدريس. **الديوان**. تحقيق محمد عفيف الرعبي. الطبعة الرابعة. بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1983.

31 – الشرباصي، أحمد. **المعجم الاقتصادي الإسلامي**. دار الجيل، 1981.

32 – شرف الدين، عمر. **الشعر من خلال المناذرة والغساسنة**. الطبعة الأولى. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987.

33 – شوقي، جلال. **الشعر في تراث الغزالي**. الإمام الغزالي: الذكرى المئوية التاسعة لوفاته.

34 – ابن أبي شيبة. **المصنف في الأحاديث والآثار**.

35 – شيخو، لويس. **شعراء النصرانية قبل الإسلام**. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1922 – 1925.

36 – الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك. **الوافي بالوفيات**. الطبعة الثانية. تيسبادن، فراينز، 1961.

37 – الضامن، حاتم صالح. **قصائد نادرة من منتهى الطلب في أشعار العرب**. الطبعة الأولى. بيروت، مؤسسة الرسالة، 1983.

38 – ابن العبد، طرفة. **الديوان**. بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.

39 – أبو العتاهية، إسماعيل بن قاسم. **الديوان**. بيروت، دار صادر، 1980.

40 – ابــن العماد الحنبلي، عبد الحي. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. بيروت، دار الآفاق الجديدة، د. ت.

41 – الغزالــي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**. بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.

42 – ـــــــــ، **روضة الطالبين وعمدة السالكين**. مجموعة رسائل الغزالي، رقم السلسلة: 2. بيروت، دار الكتب العلمية، 1986.

43 – ـــــــــ، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**. تحقيق سمير دغيم. الطبعة الأولى. بيروت، دار الفكر اللبناني، 1993.

44 – ـــــــــ، **مشكاة الأنوار في توحيد الجبار**. تحقيق سمير دغيم . الطبعة الأولى. بيروت، دار الفكر اللبناني، 1994.

45 – ـــــــــ، **فضائل الأنام**، ترجمة آل علي. تونس، الدار التونسية، 1970.

46 – ـــــــــ، **المنقذ من الضلال**. تحقيق سمير دغيم. الطبعة الأولى. بيروت، دار الفكر اللبناني، 1993.

47 – الغزالــي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن**. الطبعة الثالثة.. فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1992.

48 – ـــــــــ، **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**، سلسلة كتاب الأمة، رقم: 1 قطر، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، 1402 هجرية.

49 – فيشر، آرنست. **ضرورة الفن**. ترجمة ميشال سليمان. بيروت، دار الحقيقة، د. ت.

50 – ابــن قتيبة، عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء. الطبعة الثالثة. القاهرة، دار المعارف، 1982.

51 – القرطبي، محمد بن أحمد. **الجامع لأحكام القرآن**. بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

52 – قلعــة جــي، محمد رواس. **معجم لغة الفقهاء**. الطبعة الثانية. بيروت، دار النفائس، 1988.

53 – كاهـن، كلـود. **تاريخ العرب والشعوب الإسلامية**. ترجمة بدر الدين القاسم. الطبعة الثالثة. بيروت، دار الحقيقة، 1983.
54 – الكتبـي، محمد بن شاكر. **فوات الوفيات**. تحقيق إحسان عبـاس.. بيروت، دار الثقافة، د. ت.
55 – كثير عزة، عبد الرحمن بن أبي جمعة. **الديوان**. بيروت، دار الثقافة، 1971.
56 – كحالـة، عمـر رضـا. **معجم المؤلفين**. بيروت، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، د. ت.
57 – ابـن المثـنى، أبـو عبيدة معمر. **كتاب النقائض: نقائض جرير والفرزدق**. بغـداد، مكتبة المثنى، د. ت.
58 – المرزباني، محمد بن عمران. **الموشح**. القاهرة، دار نهضة مصر، 1965.
59 – مـروة محمـد رضـا. **الصعاليك في العصر الأموي: أخبارهم وأشعارهم**. الطبعة الأولى. بيروت، دار الكتب العلمية، 1990.
60 – ابن المعتز، عبد الله. **طبقات الشعراء**. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. الطبعة الثانية. القاهرة، دار المعارف، 1968.
61 – المقـري، أحمد بن محمد التلمساني. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكـر وزيـرها لسـان الدين بن الخطيب**. تحقيق محي الدين عبد الحميد. الطبعة الأولى. القاهرة، مطبعة السعادة، 1949.
62 – المـنذري، عـبد العظـيم. **مختصر صحيح مسلم**. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. أسيوط، لجنة إحياء السنة، د. ت.
63 – ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**. بيروت دار صادر، د. ت.
64 – الـنجار، إبراهيم. **مجمع الذاكرة أو شعراء عباسيون منسيون**. تونس، كلية الآداب، 1988.
65 – ابن النديم. الفهرست. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د. ت.
66 – النعيمـي، عـبد القادر بن محمد. **الدارس في تاريخ المدارس**. تحقيق جعفر الحسني. دمشق، المجمع العلمي العربي، 1948.

67 – أبو نواس، الحسن بن هانئ. **الديوان**. تحقيق عبد المجيـــد الغزالي. بيروت، دار الكتاب العربي، 1984.
68 – الـــنويري، أحمـــد بـــن عبد الوهاب. **نـهاية الأرب في فنون الأدب**. المؤسسة المصرية العامـــة للتأليف. د. ت.
69 – النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم. **المستدرك على الصحيحين**.
70 – ابـــن هشـــام، عبد الملك. **سيرة النبي صلى الله عليه وسلم**. القاهرة، مطبعة حجازي، 1937.
71 – الهمدانـــي، الحســـين بـــن أحمـــد. **كتاب الجوهرتين المائعتين من الصفراء والبيضاء**. حققه ونقله إلى الألمانية كريستوفر طول. الطبعة الأولى. اوبسالا، 1968.
72 – ابن الوليد، مسلم. **الديوان**. تحقيق سامي الدهان. القاهرة، دار المعارف، د. ت.
73 – يـــاقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي البغدادي. **معجم البلدان**. بيروت، دار صادر ودار بيروت، 1977.



المحتويات

الموضوع	الرقم

الموضوع	الرقم



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





الدكتور

ياسر عبد الكريم الحوراني

- ولد في اربد عام 1960م.
- حصل على درجة الدكتوراة عن اطروحته حول (الفكر الاقتصادي عند الامام الغزالي).
- حصل على العديد من الجوائز العلمية والدولية وشهادات تقدير متنوعة في التميز والابداع.
- نشر العديد من الأبحاث المحكمة في دوريات عربية ودولية.
- يعمل حالياً أستاذاً مساعداً في جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

كتب صدرت للمؤلف

- كتاب (في مصادر التراث الاقتصادي الإسلامي) منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي/ أمريكا، طبعة ثانية 2001 (حائز على جائزة شرحبيل بن حسنة لعام 2001، بلدية اربد).
- كتاب (الوقف والعمل الأهلي في المجتمع الإسلامي المعاصر- حالة الأردن)، منشورات الأمانة العامة للأوقاف/ الكويت، طبعة أولى 2001 (حائز على الجائزة الثالثة في مسابقة الكويت الدولية لأبحاث الوقف لعام 1999).
- كتاب (الوقف والتنمية في الأردن) من إصدارات اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية، عن دار مجدلاوي- عمان، طبعة أولى 2002 (حائز على جائزة عمان عاصمة للثقافة العربية لعام 2002.)
- كتاب (الفكر الاقتصادي عند الإمام الغزالي) رسالة دكتوراة طبعة أولى 2003 عن دار مجدلاوي عمان
- كتاب (اللغة والاقتصاد) بدعم من شركة الراجحي المصرفية للاستثمار بالمملكة العربية السعودية.

